موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي



ندوات تلفزيونية

قناة دبي

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

ندوات تلفزيونية - قناة دبي- ندوات مختلفة - الدرس (1-4) : ندوة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الحادية عشر / التنمية الأخلاقية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-2006

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان هو المخلوق الأول والمكرم والمكلف أن يعبد الله :

أيها الأخوة ، الإنسان هو المخلوق الأول رتبة لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 73)

والإنسان هو المخلوق المكرم لقوله تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

والإنسان هو المخلوق المكلف أن يعبد الله والعبادة في أدق تعاريفها ، طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

العبادة علة وجود الإنسان على هذه الأرض :

العبادة علة وجودنا فيها جانب معرفي هو السبب ، وجانب سلوكي هو الأصل ، وجانب جمالي هو الهدف.

أيها الأخوة الكرام ، لا بد من أن نلبي هذه الجوانب الثلاث فالإنسان عقل يدرك وحاجته إلى العلم ، وقلب يحب وحاجته إلى الحب ، وجسم يتحرك وحاجته إلى الطعام والشراب ، فإذا لبيت هذه الحاجات الثلاث تفوق الإنسان وإذا لم تلبَ هذه الحاجات بل لبيت حاجة واحدة تطرف ، فلذلك علة وجودنا ، كيف أن الإنسان لو سافر إلى بلد لينال الدكتوراه في مدينة كبيرة جداً فيها مسارح ، فيها مطاعم ، فيها مقاصف ، فيها متنزهات ، فيها نوادي ليلية ، علة وجوده في هذه المدينة شيء واحد فإذا كان الهدف واضحاً نبعت الوسائل التي تقرب لهذا الهدف ، مثلاً : يستأجر بيتاً قريباً من الجامعة ، يصاحب شاباً

يتقن اللغة التي يتعلمها ، يشتري مجلة تعينه على اختصاصه ، يأكل طعاماً يعينه على الدارسة ، حينما يتضح الهدف تضح الوسائل .

من عبد الله و لم يحبه ما أطاعه :

لذلك أجري استبيان في بعض بلاد المسلمين حول وضوح الأهداف لدى شبابنا فكانت النتيجة ثلاثة بالمئة فقط من الشباب يعرفون أهدافهم ، أخ كريم درس إدارة الأعمال في بلد بعيد قلت له هذه الآية فصعق ، قال والله هذه الآية ملخص كل دراستي :

(أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (22))

(سورة الملك)

إذاً الإنسان هو المخلوق الأول والمكرم والمكلف أن يعبد الله ، والعبادة بأوسع معانيها طاعة طوعية ، ما عبد الله من أطاعه قصراً ، طاعة طوعية الأقوياء يطاعون قصراً ، طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، وما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

***

أنواع العبادات :

1 ـ عبادة الهوية :

هناك عبادة الهوية ، أنت من ؟ إن كنت قوياً فالعبادة الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، إن كنت غنياً العبادة الأولى إنفاق المال ، وإن كنت عالماً فالعبادة الأولى تعليم العلم ، وإن كنت امرأة فالعبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد : اعلمي أيتها المرأة ، و أعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله .

2 ـ عبادة الظرف :

هناك عبادة الهوية ، وهناك عبادة الظرف ، عندك قريب مريض العبادة الأولى العناية بهذا المريض ، عندك ضيف العبادة الأولى أن تعتني بهذا الضيف .

3 ـ عبادة الوقت :

هناك عبادة الوقت : إن لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار ، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله إلا بالليل.

4 ـ عبادة العصر :

هناك عبادة العصر ، إن أراد الطرف الآخر إفقارنا ، أو إضلالنا أو إفسادنا فينبغي ، أن نستخرج الثروات وأن نطور الصناعات وأن نكسب الأموال كي نحل بها مشكلات المسلمين .

العبادات التعاملية هي الأصل :

أيها الأخوة ، من الخطأ الفادح أن يتوهم المسلمون أن العبادة هي العبادة الشعائرية ، هناك عبادات تعاملية وهناك عبادات شعائرية ، والعبادات التعاملية هي الأصل لأن العبادة الشعائرية لا تصح ولا تقبل إلا إذا صححت العبادة التعاملية :

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

الدنيا دار ابتلاء و الآخرة دار تشريف و جزاء :

أيها الأخوة ، الشيء الدقيق جداً أن الإنسان كائن لكنه متحرك ما الذي حركه ؟ حركه أن الله أودع فيه حاجة إلى الطعام والشراب ، يتحرك ليأكل حفاظاً على وجوده ، وأن الله أودع فيه حاجة إلى الجنس يتحرك ليتزوج إن كان مؤمناً ومستقيماً ، وأودع فيه حاجة ثالثة لتأكيد الذات للحفاظ على بقاء الذكر ، فمن أجل الحفاظ على بقاء الفرد والحفاظ على بقاء النوع والحفاظ على بقاء الذكر تكون هذه الحركة ومن خلال هذه الحركة يستقيم أو ينحرف ، يصدق أو يكذب ، يخلص أو لا يخلص ، من هنا كانت الدنيا دار ابتلاء ، ورد في بعض الآثار : أن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار

عقبى ، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا ، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا ، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي .

شقاء الإنسان لا يكون إلا بسبب جهله :

أيها الأخوة الكرام ، على وجه الأرض ستة آلاف مليون إنسان ، ما منهم واحد إلا وهو مجبول على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، لماذا الشقاء ؟ بسبب الجهل ، أزمة أهل النار في النار أزمة علم ، والدليل :

(لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

الإنسان مفطور على حبّ وجوده فإذا أردنا الدنيا فعلينا بالعلم ، وإذا أردنا الآخرة فعلينا بالعلم ، وإذا أردناهما معاً فعلينا بالعلم ، والعلم لا يعطينا بعضه إلا إذا أعطيناه كلنا ، فإذا أعطيناه بعضنا لم يعطِنا شيئاً ، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل ، وطالبُ العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً ، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً .

سلامة الإنسان تتحقق باستقامته و سعادته تتحقق ببذله و تضحيته :

أيها الأخوة ، كيف تتحقق سلامة وجودك وقد فطرت عليها ؟ بطاعة الله عز وجل ، لأن الإنسان أعقد آلة في الكون ، وله صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فانطلاقاً من حبك لذاتك إذا اتبعت تعليمات الخالق سلمت ذاتك ، السلامة سببها الاستقامة والاستقامة سلبية ، ما كذبت ، ما غششت ، ما أكلت مالاً حراماً ، كله شيء سلبي ، الاستقامة تحقق السلامة ، لو أردنا أن نجسدها كأن طريقاً ممتلئ بعقبات كأداء ، فالاستقامة أن تزيح هذه العقبات عقبة عقبة ، لذلك الاستقامة شيء والعمل الصالح شيء آخر ، العمل الصالح إيجابي ، أنت لا تسعد إلا بالعمل الصالح :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

تسلم باستقامتك وتسعد ببذلك وتضحيتك ، لذلك حجمك الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح ، كل مسلم عليه أن يدعو إلى الله والدليل :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية : 108)

فأي إنسان يتبع النبي يجب أن يدعو إلى الله لكن في حدود ما يعلم ومع من يعرف .

العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنه وسيلة للوصول إلى الحق :

إذاً :

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

طبقوا علمهم ، العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنه وسيلة ، فما لم تعمل به لا قيمة له بل أصبح حجة عليك ،

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

الدعوة إلى الله في حدود ما تعلم ومع من تعرف ،

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

صبروا على طلب العلم ، وصبروا على تطبيقه ، وصبروا على الدعوة إليه ، ومعركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ، وهذا قدرنا ولا بد من الصبر على طلب العلم وعلى تطبيق العلم وعلى الدعوة إلى العلم .

الناس عند الله نموذجان لا ثالث لهما :

أيها الأخوة ، الناس على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، هم عند الله نموذجان ، لا ثالث لهما ، الأول نموذج عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، والنموذج الثاني إنسان غفل عن الله وتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فشقي وهلك في الدنيا والآخرة ، ما الذي يؤكد هذا ؟ قوله تعالى :

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أيقن أنه مخلوق للجنة ، فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، يسعده أن يعطي لا أن يأخذ :

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

كذب أنه مخلوق للجنة ، وآمن في الدنيا ، فاستغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ ، لهذا يمكن أن يكون على رأس الهرم البشري صنفان من بني البشر ، الأقوياء والأنبياء ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، والأنبياء ملكوا القلوب ، وشتان بين أن تملك رقبة الإنسان وبين أن تملك قلبه ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء عاش الناس لهم ، الأنبياء عاشوا للناس ، والناس جميعاً

تبع لقوي أو نبي ، لهذا أحب الناس الأنبياء وخافوا من الأقوياء ، وبطولة الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء ، حتى يحبهم الناس .

ارتباط القراءة بالإيمان :

أيها الأخوة الكرام ، في أول كلمة في أول آية في أول سورة في القرآن الكريم قال تعالى :

(اقْرَأْ (1))

(سورة العلق)

أي اطلب العلم ، أودع الله فيك قدرة إدراكية أنا أسميها الحاجة العليا في الإنسان ، فما لم تلبَ هذه الحاجة هبط الإنسان عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به ، لذلك أول كلمة في أول آية في أول سورة في القرآن الكريم اقرأ ولكن :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

القراءة مرتبطة بالإيمان ما لم يقدك العلم إلى الإيمان فليس علماً :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا))

[مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ]

ومن أذن لا تسمع وأعوذ بك من هؤلاء الأربع .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

أنا أسمي هذه القراءة ، قراءة البحث والإيمان .

من تفكر في خلق الله عز وجل خشع قلبه و ضُبطت جوارحه :

لذلك :

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24))

(سورة عبس)

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

أيها الأخوة الكرام ، بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر ، كم يقطع بالدقيقة ؟ ضرب ستين ، كم يقطع بالساعة ؟ أيضاً ضرب ستين ، كم يقطع في اليوم ؟ ضرب أربع وعشرين ، كم يقطع في السنة ؟ ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ، كم يقطع في أربع سنوات ؟ ضرب أربعة ، معنا رقم كبير جداً ، ويحسن حسابه أي طالب في الصف التاسع ، لو أردنا أن نصل لهذا النجم بمركبة أرضية ، نحتاج إلى خمسين مليون عام، متى نصل إلى نجم القطب ؟ أربع آلاف سنة ، المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية ، نجم اكتشف حديثاً أربعة وعشرين مليار سنة ضوئية للوصول إليه ، الآن اقرأ قوله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(سورة الواقعة)

هذا الإله العظيم يُعصى ؟! ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كثيرة منها :

1 - وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ :

أيها الأخوة الكرام ، الآيات التي نصبها الله عز وجل في السماوات والأرض لو تفكرنا في بعضها لخشعت قلوبنا ، أيها الأخوة الكرام ، بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر ، الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، يعني جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، قال الله عز وجل :

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

في برج العقرب ، برج العقرب فيه نجم صغير متألق اسمه قلب العقرب ، الآن دققوا يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، لذلك أيها الأخوة الكرام ، أهذا الإله العظيم يُعصى ؟! ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

هذا برج عظيم فيه نجم صغير متألق أحمر اللون اسمه قلب العقرب دققوا الآن قلب العقرب النجم الصغير الأحمر المتألق الذي في برج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما .

2 ـ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا :

لذلك أيها الأخوة الكرام ، إذا عرفنا الآمر ثم عرفنا الأمر تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا عرفنا الأمر ولم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر ، هذا خلق الله في السماوات والأرض فماذا عن خلقه في أحقر مخلوق نراه كل يوم البعوضة ، وردت في القرآن الكريم :

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

البعوضة بعد أن وضعت تحت المجهر تبين أن في رأسها مئة عين ، وفي فمها 48 سناً ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وقلب لكل جناح ، وفي كل قلب أذينان وبطينان ودسامان ، وتملك البعوضة جهازاً لا تملكه الطائرات ، تملك جهاز استقبال حراري ، إنها ترى الأشياء لا بأشكالها ، ولا بأحجامها ، ولا بألوانها ، ولكن ترى الأشياء بحرارتها ، وحساسية هذا الجهاز الحراري واحد على ألف من الدرجة المئوية .

وتملك جهاز تحليل دم ، فما كل دم يناسبها ، يستيقظ الأول وقد ملئ بلسع البعوض ويستيقظ الثاني سليماً معافى ، تحلل ثم تمتص الدم ، وجهاز تخدير لئلا تقتل ، بعد انتهاء فعل التخدير هي في الجو تضحك عليه ، معها جهاز تحليل ، معها جهاز تخدير تخدره ومعها جهاز تمييع ، لكن خرطومها دقيق جداً معها ست سكاكين أربع سكاكين لإحداث جرح مربع وسكينان يلتئمان على شكل أنبوب لامتصاص الدم ، وفي أرجل البعوضة مخالب و محاجم .

هذا الإعجاز العلمي البعوضة وردت في القرآن الكريم لكن بعد أن اكتشف المجهر الإلكتروني تبينت هذه الحقائق وقد عرضتها في الفضائية السورية .

3 ـ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ :

أيها الأخوة الكرام :

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

أنواع القراءات :

1 ـ قراءة البحث و الإيمان :

هذه القراءة الأولى قراءة بحث وإيمان :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

2 ـ قراءة الشكر و العرفان :

القراءة الثانية قراءة الشكر والعرفان ، الله عز وجل منحك نعمة الإيجاد ، ومنحك نعمة الإمداد ، ومنحك نعمة الهدى والرشاد :

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

أعظم نعمة أنعم الله بها عليك أنه أوجدك ، أوجدك ليسعدك فلذلك القراءة الأولى قراءة البحث والإيمان، القراءة الثانية قراءة شكر والعرفان .

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف وتسخير تكريم :

الله عز وجل سخر الكون تسخيرين دققوا :

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

الكون مسخر لنا تسخيرين ، تسخير تعريف وتسخير تكريم ، أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان كبيرتان الوظيفة الأولى أن تتعرف إلى الله من خلاله رأى النبي صلى الله عليه وسلم الهلال فقال :

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن رافع بن خديج]

أي أن هذا الهلال يرشدني إلى الله ، وفضلاً عن ذلك أنتفع به .

الحب نوعان : حب مع الله و حب في الله :

هناك حب في الله وهناك حب مع الله ، أن تحب في الله فهو عين التوحيد ، أن تحب مع الله هذا عين الشرك ، نعوذ بالله أن نحب مع الله أحداً أما أن نحب في الله ، إذا أحببت المؤمنين حبّ في الله ، حتى إذا أحببت زوجتك حبّ في الله ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

سألته كيف حبك لي ؟ قال لها : كعقدة الحبل ، تسأله من حين لآخر كيف العقدة ؟ فيقول على حالها.

عدم التطابق بين الأقوال والاعتقاد والأفعال ظاهرةُ المجتمع المعاصر:

أيها الأخوة الكرام ، الآن ندخل في الموضوع الذي أعلن عنه ؛ إن صناعة الإنسان الكامل ، وبناء الأسرة المتماسكة ، وإقامة المجتمع الفاضل هي من أسمى أهداف بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، لكن طوفان الفساد في آخر الزمان حمل من الأوبئة الخلقية الشيء الكثير ، حمل الكذب ، فالمجتمع يكذب كلما تنفس ، جماعات وأفراداً ، حمل الكذب والدجل ، والحسد والنفاق ، والفسق والفجور ، والظلم والخيانة ، والحمية والعصبية ، والغش والتدليس ، والطمع والجشع ، والمكر والحيلة ، والفحش والخلاعة ، والحرص والبخل ، والترف والتبذير ، وسوء الظن بالله والرياء ، وعقوق الوالدين وإهمال الأولاد ، وأكل السحت والمال الحرام ، وأكل مال اليتيم .

لذلك المجتمعات المعاصرة بلغت من الفساد ما لا يطاق ، يروى في بعض المجتمعات الغربية ، أن شاباً أحب فتاة هناك فاستأذن والده من الزواج منها ، قال له : لا يا بني إنها أختك وأمك لا تدري ، فلما أحبّ ثانية قال يا أبي هذه فتاة أحببتها ، قال له : أيضاً هذه أختك وأمك لا تدري ، الثالثة كذلك شكا إلى أمه قالت له : خذ أياً شئت أنت لست ابنه وهو لا يدري .

إلى هنا وصل المجتمع ، والله كنت في استراليا وحدثني أخ كريم الأب المحافظ المتزمت الشديد التقليدي إذا رأى ابنته عصراً تتزين يقول لها احذري أن تحملي يا بنيتي فقط ، إلى هنا وصلنا .
أيها الأخوة الكرام ، إن ظاهرة النفاق التي تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بشكل مطول تعني خللاً في مطابقة الأقوال للمعتقدات ، وهذا هو النفاق الاعتقادي الذي يخرج صاحبه من الملة ، أما التباين بين الأقوال والأفعال فيعبر عنه بالنفاق العملي ، وهذا شاع كثيراً في المجتمع ، ومهمة التنمية الأخلاقية تطهير حياة المسلمين .

أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع ما يعتقده :

أيها الأخوة الكرام ، حينما يسقط الإنسان يتحول عن عبادة ربه إلى عبادة شهواته ، وعن علاقته بالآخرين تعتمد القوة بدل الرحمة ، وعلى العنف أيضاً لا على التفاهم ، وينصرف الإنسان عن العناية بالنفس وتزكيتها إلى العناية بالجسد وإمتاعه ، وعن الاهتمام بالمبدأ إلى الاهتمام بالمصلحة ، وعندئذ يتحول المجتمع كله إلى غابة يحس كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين كما أنه من الممكن أن يكون فريسة وضحية لأي واحد منهم ، هذا هو مجتمع الغاب ، المشكلة كبيرة جداً :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

* * *

أيها الأخوة الكرام ، إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع ما يعتقده حيث يشعر المرء بتيار يجتاحه من البهجة والأمن كلما تخطى عقبة من العقبات التي تحول بينه وبين التناقض مع مثله وقيمه .

حقائق الإيمان و حلاوة الإيمان :

لذلك في الإيمان حقائق وفي الإيمان حلاوة ، فرق كبير بين الحقائق والحلاوة ، حقائق الإيمان كخارطة قصر ، الأبهاء ، الشرفات ، الحدائق ، لكن الذي عنده هذه الخارطة لا يملك كوخاً يسكنه ، حلاوة الإيمان أن تملك هذا القصر وأن تسكنه .
فرق كبير بين أن تقول ألف مليار وبين أن تملكها مسافة كبيرة جداً ، حقائق الإيمان لا تسعد تقتنع بالدين لكنك لا تسعد به ، بينما حلاوة الإيمان تجعلك قمة في السعادة ، إن لم تقل والله ما على وجه الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني ففي الإيمان خلل ، هذه حلاوة الإيمان لذلك :

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

طابع الرقي الحقيقي هو طابع إيماني أخلاقي أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً:

أيها الأخوة الكرام ، إن الذين نكن لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون القوة والمال أو القوة الجسدية الخارقة ، إنما نكن عظيم الاحترام لأولئك الذين يملكون خلق التسامي ، وخلق الترفع عن سفاسف الأمور ، أولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم ، أولئك الذين يملكون فضيلة الانتظار لوعد الله عز وجل .

إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع إيماني أخلاقي أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً ، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تشكل طابعاً أساسياً مصدره الاستقامة والنبل والتضحية وليس التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران ، ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال الشهوات يكون عن طريق إحداث انتفاضة إيمانية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية للوضع الحضاري الراهن ، ويلتفت إلى إثراء حياته بوسائل كثيرة لا تحتاج إلى مال ، لن يكون في إمكان أفضل النظم الاجتماعية ولا في إمكان أقصى العقوبات الصارمة أن تُقوّم الاعوجاج ، ولا أن تملأ الفراغ النفسي الناشئ عن ذبول النفس وانحطاط القيم ، فالعقوبات الصارمة لا تنشئ مجتمعاً لكنها تحميه ، والنظم مهما تكن محكمة ومتقنة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها وتأويلها بما يجهضها ، وكل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدة على نفسها بالعقم والعجز ، لا بد أن نكون على يقين من أن تيار الشهوات والنزوات الجارف لا يمكن أن يقابل إلا بتيار إيماني متدفق من المشاعر والأحاسيس الإنسانية ، فوظيفة الفكر الدلالة على الطريق وعلى الأساليب والأدوات المناسبة للعمل ، ولكن الذي نستمد منه الطاقة على الاندفاع في طريق الخير والقوة هو كبح جماح الشهوات ، الطاقة نأخذها من الإيمان العميق ورصيدنا من المشاعر الحميمة التي هي ثمرة اتصال العبد بربه .

الماديات لا توفّر مجتمع السعادة :

إن كثيراً من الشباب الذين جرفهم تيار الجنس والمجون والخلاعة لن يكونوا بحاجة إلى أدلة على فضل العفة والاستقامة ، وإنما كانوا بحاجة إلى شيء من المعاني التي تفيض على القلب بسبب تذوق طعم العبودية لله عز وجل ، والإحساس الصادق بمعية الله عز وجل لهم .

حين يبلغ التقدم التقني أقصى مداه ويشعر المرء بالتخمة من أدوات التحكم عن بُعد ، وكل ما يجعل الحياة خالية من التحديات حينئذ تنبعث في النفس أشواق قديمة جديدة هي أشواق النفس إلى ما وراء المادة ، إلى عالم التراحم ، إلى عالم التعاطف ، إلى عالم التضحية ببعض المكاسب من أجل استمرار حياة المجتمع .

ما هي الجهةُ الحاكمة على الخلق تحسينًا وتقبيحاً :

إن الأخلاقيين اليوم هم القادة غداً ، إن الإسلام يعلمنا أنه بالإمكان تصحيح المسار قبل أن نرتطم بالقاع، كما يعلمنا أنه بالإمكان أن نتحول من الخسارة إلى الربح قبل أن يصبح الرصيد صفراً ، ذلك إذا أصغينا إلى نداء الفطرة في أعماقنا ، وضغطنا على بعض حاجات الجسد من أجل إنعاش النفس ، وفكرنا ملياً بما هو آت .

واقع المسلمين مؤلم جداً أنا أذكر أن إيميلاً وصلني ، فيه قصة قصيرة ، أن إماماً سكن في لندن ، نُقل إلى ظاهر لندن ، اضطر أن يركب مركبة كل يوم مع السائق نفسه ، فمرة صعد المركبة ، وأعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ، ردّ له السائق التتمة ، عَدّها ، فإذا هي تزيد عشرين بنساً على ما يستحق ، فقال هذا الإمام في نفسه : سأردّ هذه الزيادة للسائق ، لكن بعد أن جلس جاءه خاطر شيطاني ، قال : إنها شركة عملاقة ، ودخلها فلكي ، والمبلغ يسير جداً ، وأنا في أمسّ الحاجة إليه ، فلا عليّ أن آخذه ، لكن الذي حصل أنه قبل أن ينزل دون أن يشعر مدّ يده إلى جيبه ، وأعطى السائق العشرين بنساً ، فابتسم السائق ، وقال له : ألست إمام هذا المسجد ؟ قال : بلى ، قال : والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في المسجد لأتعبد الله عندك ، ولكنني أردت أن أمتحنك قبل أن آتي إليك ، وقع مغشياً عليه ، لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقترفها لو لم يدفع للسائق هذا المبلغ ، فلما صحا من غفوته قال : يا رب ، كدت أبيع الإسلام كله بعشرين بنساً .

القيم الإسلامية التي ينبغي أن نعتد بها :

كم مسلم يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ؟ أيها الأخوة ، الطرف الآخر لا يمكن أن يفتح كتاب فتح الباري لشرح صحيح البخاري ، لا يمكن يفتح كتاب القرطبي ، الطرف الآخر يرى الإسلام من خلال المسلمين ، إذا في عندهم نسب البطالة والعنوسة والأمية عالية في المجتمع ، وبأسهم بينهم كما ترون ، الطرف الآخر يتعاونون وبينهم خمسة بالمئة قواسم مشتركة .

بقي شيء ينبغي أن أقف عنده قليلاً ، هذا الشيء هو ينبغي أن نفهم إسلامنا فهماً متطابقاً مع الواقع ، عندنا قيم ثابتة وقديمة ونعرفها جميعاً ، أنت حينما تدفع صدقة لفقير تأتيك نشوة إيمانية ، أو إذا صليت قيام الليل والناس نيام تأتي نشوة إيمانية ، أما الآن حينما تنتمي للمجموع قيمة حضارة وقيمة إسلامية :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة :2)

أنت حينما ترشد الاستهلاك ، أنت حينما تنتمي للمجموع ، أنت حينما تؤمن بفريق العمل ، هناك قيم كثيرة ، تدير الوقت ، تحافظ على وقتك ، تحافظ على ممتلكات أمتك هذا كله من القيم الإسلامية التي ينبغي أن نعتد بها .

أبيات إلى الشاردين متمنياً أن ينتبهوا من غفلتهم وأن يعودوا إلى رشدهم :

أيها الأخوة الكرام ، أحياناً إنسان يتألم ألماً شديداً وقد عبرت عن هذا الألم بقصيدة أسمعكم بعض أبياتها فلعل الله ينفعنا بها :

أخي في الله أخبرني متى تغضبْ ؟

إذا انتهكت محارمنا

إذا نُسفت معالمنا ، ولم تغضبْ

إذا قُتلت شهامتنا ، إذا ديست كرامتنا

إذا قامت قيامتنا ، ولم تغضبْ

فـأخبرني متى تغضــبْ ؟

إذا نُهبت مواردنا ، إذا نكبت معاهدنا

إذا هُدمت منازلنا ، إذا قطعت طرائقنا

وظلت قدسنا تُغصبْ

ولم تغضبْ

فأخبرني متى تغضبْ ؟

عدوي أو عدوك يهتك الأعراض

يعبث في دمي لعباً

إذا لله.. للحــرمات.. للإسلام لم تغضبْ

فأخبــرني متى تغضبْ ؟!

رأيتَ هناك أهوالا

رأيتَ الدم شلالاً

رجالاً شيعوا للموت أطفالاً

رأيتَ القهر ألواناً وأشكالاً

ولم تغضبْ

فأخبــرني متى تغـضبْ ؟

فصارحني بلا خجلٍ.. لأية أمة تُنسبْ ؟!

فلست لنا ، ولا منا ، ولست لعالم الإنسان منسوبا

ألم يحزنك ما تلقاه أمتنا من الهول ؟

ألم يخجلك ما تجنيه من مستنقع الحل؟

وما تلقاه في دوامة الإرهاب والقتلِ

ألم يغضبك هذا الواقع المعجون بالذلِ

وتغضب عند نقص الملح في الأكل!!

ألم يهززك منظر طفلة ملأت

مواضعَ جسمها الحفرُ

ولا أبكاك ذاك الطفل في هلعٍ

بظهر أبيه يستترُ

فما رحموا استغاثته

ولا اكترثوا ولا شعروا

فخــرّ لوجهه ميْتــاً

متى التوحيد في جنبَيْك ينتصرُ؟

أتبقى دائماً من أجل لقمة عيشكَ

المغموسِ بالإذلال تعتذرُ؟

متى من هذه الأحداث تعتبرُ؟

****

أيها الأخوة الكرام ، مرة خطر في بالي أن أبعث برسالة إلى البطل صلاح الدين كتبت هذه الرسالة وسأتلوها على مسامعكم .

عذرا لك يا صلاح الدين ، وألف عذر ، أنت الذي أخرجت الفرنجة القدامى من بلاد الشام ومصر والعراق ، وأنت الذي حررت دمشق والقدس من أيديهم ، وقد قلت قولتك الشهيرة لن يرجعوا إليها

مادمنا رجالاً ، عذراً يا صلاح الدين ، لقد رجعوا في المرة الأولى بعد الحرب العالمية الأولى ، ولما دخل قائدهم إلى دمشق ، وقف عند قبرك ، وقال :ها قد عدنا يا صلاح الدين ، فعذراً وألف عذر لك لقد رجعوا مرة ثانية ولسان حالهم يقول : ها قد عدنا يا صلاح الدين ، ولئلا تقلق علينا إنهم يقولون إنما عادوا كي ننعم بحرية كحريتهم ، وسلام كسلامهم ، ورخاء كرخائهم ، ولا أتمنى عليك أيها القائد الفذ أن تسألنا : أهم يحققون هذه الأهداف بوسائل من جنسها أم بوسائل متناقضة لها ؟ من أجل أن تكون مستريحاً لا تسأل إن وسائلهم كانت إفقاراً وإضلالاً وإفساداً وإذلالاً ، إنها ردة ولا صدّيق لها ، إنها هجمة تترية ولا قطز لها ، إنها حملة فرنجية وأنت غائب عنها.

عذراً يا صلاح الدين لقد كانت معالم الحزن والأسى ترتسم على وجنتيك ، ولم يكن للابتسامة مكان ولا نصيب على شفتيك ، فلما كنت تسأل لماذا لا تضحك يا صلاح الدين ؟ كان جوابك المتكرر إني استحي من الله أن أضحك ، وما يزال المسجد الأقصى بيد المعتدين.

عذرا يا صلاح الدين ، وأنت الذي وصلك خبر اعتراض أمير الفرنجة أرناط الذي احتل قلعة الكرك في الأردن ، ومن هناك راح يقطع الطريق على الحجاج المسلمين المتوجهين من الشام نحو الحجاز ، فكان يقتل الرجال ، ويسبي النساء ، وهو يقول نادوا من ينتصر لكم ، فلما سمعت مقالته بكيت وانسابت الدموع من عينيك على وجنتيك ، وقد قلت قولتك الشهيرة : " أنا سأنوب عن رسول الله بنصرة أمته ".

وهذا ما كان منك أيها البطل الذي ما هدأ لك بال ولا سكنت لك جارحة ، حتى وفيت بوعدك يوم حطين ، يوم انتصرت على ملوك أوربا وأمرائها ويوم وقع أرناط في الأسر ، فمثل بين يديك وذكرته بما قال وقلت له : يا أرناط ، أنا أنوب اليوم عن رسول الله بالدفاع عن أمته .

عذراً لك يا صلاح الدين ، يا من هزمت الفرنجة القدامى حتى أصبح اسمك على كل لسان نساء أوربا يخوفن بك أولادهن في الليل ليناموا ، نم يا ولدي فإن لم تنم فسيأتي صلاح الدين .

أيها الأخوة الكرام ، نتابع هذه الرسالة ...

عذراً وألف عذر يا أيها القائد الفذ لما حلّ بنا من بعدك ومن أجل أن تبقى منسجماً مع إيمانك الكبير نقول لك هان أمر الله علينا من بعدك ، فهنّا على الله .

اعتذار للبطل صلاح الدين الذي طرد الفرنجة القدامى و نحن أعدناهم :

أيها الأخوة الكرام ، الأمة العربية والإسلامية تمر بمحنة عظيمة ، نرجو أن تكون وراءها منحة ربانية، لا شرقية ولا غربية ولكن علوية سماوية ، وتعاني هذه الأمة من شدة لم تشهد مثلها في التاريخ

الحديث ، نرجو أن يعقب هذه الشدة شَدة إلى الله عز وجل تستحق بعدها أن تستخلف وأن تكمن في الأرض ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة دبي- ندوات مختلفة - الدرس (2-4) : ندوة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الثانيةعشر / مقومات التكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-09-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

كلُّ إنسان مكلف أن يعبد الله :

أيها الأخوة الأحباب ، الإنسان مكلف أن يعبد الله والدليل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

من أدق تعريفات العبادة أنها طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ـ علة وجودنا أن نعبد الله :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

وحينما كلفنا الله أن نعبده أعطانا مقومات التكليف ، مثال للتقريب ولله المثل الأعلى ، حينما يكلف الأب ولده لينال الدكتوراه يعطيه مقومات الدراسة ، يحجز له مقعداً في جامعة محترمة ، يعطيه النفقات، يعطيه الوسائل ، فالله عز وجل حينما كلفنا أن نعبده أعطانا مقومات التكليف ، مقومات التكليف هي الكون ، والعقل ، والفطرة ، والشهوة ، والحرية ، والمنهج ، والوقت ، هذه بنود هذا اللقاء الطيب الذي أرجو الله عز وجل أن أقدم لكم شيئاً من الخير الذي يمكن أن ينهض بنا إلى الله وإلى السمو الذي أراده الله لنا ـ

أيها الأخوة الكرام ، قالوا : القرآن كون ناطق ، والكون قرآن صامت ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ـ فالكون كل شيء في الكون ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، كل شيء فيه ، لذلك الله عز وجل حينما سخر هذا الكون سخره تسخيرين ، تسخير تعريف وتسخير تكريم ، أراد الله عز وجل من هذا الكون العظيم أن نعرفه والدليل :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ)

(سورة الطلاق الآية : 12)

الكون مظهر من مظاهر أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى :

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم :

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

لعل الملمح الرائع في هذه الآية أن الله اكتفى من أسمائه الحسنى باسمين ، لأن هذين الأسمين لو تحقق المرء بهما لاستقام على أمر الله ، حينما يوقن أن علم الله يطوله وأن قدرته تطوله لا بد من أن يستقيم على أمر الله .

لذلك أيها الأخوة الكرام ، هذا الكون مظهر من مظاهر أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، إذا صح أن الإسلام مثلث مقسم إلى أربعة أقسام ؛ القسم العلوي هو العقيدة وهو أخطر ما في الدين ، هذا القسم العلوي هو الميزان والخطأ في الميزان لا يصحح ، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر ، وأفضل ألف مرة في أن يخطئ المرء في الوزن من أن يكون ميزانه فيه خلل خطير ، فلذلك العقيدة يقع في رأسها معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، وقد قال الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية : 180)

أنتم حينما تتعرفون إلى أسماء الله الحسنى تقبلون على الله ، وأنتم حينما تشتقون من كمال الله كمالاً تتقربون به إلى الله ، فإذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي ، إذاً هذا الكون إن صح التعبير مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، هذا الكون في كل جزئية منه ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، بل إن الله عز وجل يؤكد في أكثر من ألف آية أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

أدلة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الأحباب ، رواد الفضاء حينما صعد رائد الفضاء في أول رحلة له إلى القمر ، أحد كبار علماء الفلك من القطر المصري كان في القاعدة ، قاعدة إطلاق هذه المركبة ، صاح رائد الفضاء فجأة لقد أصبحنا عمياناً لا نرى شيئاً ، ما الذي حصل ؟ بعد أن تجاوز طبقة الهواء التي يبلغ سمكها خمسة وستين ألف كيلو متر ، هي طبقة الهواء ، فلما خرجت المركبة من طبقة الهواء انعدم تناثر الضوء ، فإذا انعدم تناثر الضوء أصبح الفضاء مظلماً ظلمة حالكة ، فصاح هذا الرائد لقد أصبحنا عمياً ، فإذا فتحنا القرآن الكريم الذي نزل قبل ألف وأربعمئة سنة يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

لأن هذا القرآن الكريم لكل الأمم والشعوب ، وهو خاتم الكتب ، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والرسل ، إذاً لا بد له من معجزة مستمرة معه ، بينما معجزات الأنبياء السابقين وقعت مرة وانتهت فأصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه .

في أكبر محطة فضائية قبل عشر سنوات عرضوا في موقعهم المعلوماتي صورة لوردة جورية ، لو تأملنا فيها دقيقاً لا نشك لثانية واحدة أنها وردة جورية ؛ بأوراقها الحمراء الداكنة ، ووريقاتها الخضراء الزاهية ، وكأسها الأزرق في الوسط ، هذه الوردة الجورية كُتب تحتها صورة انفجار لنجم اسمه عين القط يبعد عن الأرض ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، إذا فتحنا القرآن الكريم وقرأنا الآية الكريمة :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

(سورة الرحمن)

هذا يؤكد أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم ، ما من مادة ، ما من موضوع يسكت الأطراف كلها ويجعلها تخضع لهذا الدين العظيم كالإعجاز العلمي .

نظرية أينشتاين العملاقة جاءت مدرجة في آية واحدة في القرآن الكريم :

النظرية العملاقة التي جاء بها أينشتاين ، هذه النظرية في القرن العشرين قلبت مفاهيم الفيزياء ، هل تصدقون أن هذه النظرية مدرجة في آية واحدة ، وقد شرحت هذه الآية في مؤتمر للإعجاز العلمي الخامس الذي عقد في موسكو ، وعندي أصل الموضوع .

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

الأمة العربية تعد السنة القمرية ، والقمر يدور حول الأرض دورة كل شهر ، نأخذ مركز الأرض ومركز القمر ، نصل بينهما بخط ، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، ونعرف هذا الطول من نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما ، لو ضربنا باثنين كان القطر ، لو ضربناه 3.14 كان المحيط ، لو ضربنا المحيط باثني عشر شهر بالسنة، ضرب ألف ، بألف سنة ، نحن أحد أولادنا الصغار مع آلة حاسبة يستطيع أن يحسب كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما ، ضرب اثنين ، ضرب 3.14 ضرب اثني عشر ، ضرب ألف ، هذا الرقم الكبير هو ما يقطعه القمر في

رحلته حول الأرض في ألف عام ، لو قسمناه على ثوان اليوم ، لكانت المفاجئة الصاعقة الناتج سرعة الضوء الدقيقة (299752)، هذه سرعة الضوء الدقيقة التي قلبت مفاهيم الفيزياء مدرجة في آية واحدة:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

أي ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد ، فإذا قسمنا على ثوان اليوم كانت سرعة الضوء الدقيقة .

لون آخر من ألوان الإعجاز العلمي :

أيها الأخوة الكرام ، هذا لون من ألوان الإعجاز العلمي الله عز وجل حينما قال :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر الآية : 41)

ما معنى هذه الآية ؟ أي الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي (أي بيضوي)، وهذا الشكل له قطر أصغر وقطر أطول ، فإذا اتجهت الأرض في مسارها حول الشمس إلى القطر الأصغر ضاقت المسافة بينها وبين الشمس ، هناك احتمال أن تنجذب الأرض إلى الشمس ، فإذا جُذبت إليها تبخرت في ثانية واحدة ، ما الذي يبقيها على مسارها ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

الله عز وجل يرفع سرعة الأرض ، فتنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة ، فتبقى في مكانها ، فإذا وصلت إلى القطر الأطول ، المسافة زادت ، وبحسب قانون التجاذب مع ازدياد المسافة تضعف الجاذبية ، فلئلا تتفلت من جاذبية الشمس ، تخفض الأرض سرعتها ، هل هي مادة عاقلة ؟ من خفض سرعة الأرض كي ينشأ من خفض السرعة قوة نابذة أقل تكافئ القوة الجاذبة الأقل فتبقى في مسارها :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر الآية : 41)

إذا تفلتت كيف نرجعها على الشمس ؟ نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي ، قطر الحبل خمسة أمتار، والحبل الفولاذي الذي قطره خمسة أمتار يحتمل قوى شد مليوني طن ، يعني بشكل أو بآخر ، الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جاذبية تساوي مليوني ضرب مليون مليون طن ، من أجل أن تحرف الأرض عن مسارها حول الشمس ثلاثة ميليمتر كل ثانية :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر الآية : 41)

الكون بما فيه من آيات دالة على عظمة الله هو خلقه :

وقال :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (41))

(سورة فاطر)

هذه الآية أثبتها العلم الحديث ، لو زرعناها على سطح الأرض المليون مليون كبل لفوجئنا أن بين الحبلين مسافة خمسة أمتار فقط ، نحن أمام غابة من الفولاذ ، لا يوجد ملاحة ولا بناء ولا طيران ولا زراعة ، لا شيء ، لا يوجد شمس أساساً ، اقرؤوا الآية الكريمة :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

أي بعمد لا ترونها ، وقوى التجاذب هي عمد لا نراها .

مقومات التكليف:

1- الكون :

أيها الأخوة الكرام ، الكون قرآن صامت والقرآن كون ناطق والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي . إذاً الكون بما فيه من آيات دالة على عظمة الله هو خلقه ، وقد قال الله عز وجل :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

إنها عبادة التفكر ، وتفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وهذه الآية تبين أن أحد نشاطات المؤمن التفكر في خلق السماوات والأرض وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : الويل لمن لم يفكر في هذه الآية ، إذا قلنا آيات الله الدالة على عظمته هي آياته الكونية وآياته القرآنية وآياته التكوينية ، آياته الكونية خلقه ، وآياته القرآنية كلامه ، وآياته التكوينية أفعاله ، هذه الباخرة العملاقة التايتنك الذي أصدر مع بنائها نشرة ، جاء في هذه النشرة إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة ، ما الذي حصل ؟ أنها غرقت في أول رحلة لها من بريطانيا إلى بوسطن ، فقال بعض القساوسة : إن غرق هذه السفينة رسالة من الله لأهل

الأرض . لذلك نحن نعرف الله إما من خلقه عن طريق التفكر وإما من أفعاله عن طريق النظر ، قال تعالى :

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

وإما من كلامه عن طريق التدبر ، أصل الدين معرفة الله عز وجل .

أيها الأخوة الكرام ، إذا عرفنا الآمر ثم عرفنا الأمر تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا عرفنا الأمر ولم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر كحال المسلمين اليوم ، هذا الكون قرآن صامت يقرأه كل إنسان من أي جنس أو لون أو انتماء ، كتاب مفتوح :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

وظيفة الغشاء العاقل :

الله عز وجل يقول :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت)

يا رب ماذا عن آيات النفس ؟ قال تعالى :

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

المرأة حينما تلد ينزل مع الجنين قرصاً لحمياً يسمى عند الأطباء المشيمة ، في هذا القرص تجتمع دورة دم الأم مع دورة دم الجنين ، ولا يختلطان ، ومن بديهيات الطب إذا شخص أخذ دم من غير زمرته يموت فوراً بما يسمى بانحلال الدم ، بينما هذا القرص اللحمي(الخلاص)المشيمة يجتمع فيه دم الأم زمرة ولدورة دم الجنين زمرة ولا يختلطان ، كيف ؟ بينهما غشاء سماه الأطباء (الغشاء العاقل)، لأنه يقوم بأعمال يعجز عنها عقلاء أطباء الأرض مجتمعين ، ماذا يفعل هذا الغشاء ؟ هذا الغشاء يأخذ من دم الأم السكر يضعه في دم الجنين قام بدور جهاز الهضم ، يأخذ من دم الأم الأوكسجين يضعه في دم الجنين قام بدور جهاز التنفس ، ثم يأخذ من دم الأم الأنسولين يضعه في دم الجنين قام بدور البنكرياس ، صار بدم الجنين في أوكسجين ، وهيدروجين ، وأنسولين ، يحترق السكر بالأوكسجين عن طريق الأنسولين ، تولد طاقة بدرجة سبعة وثلاثين ، نتيجة الاحتراق هناك فضلات ثاني أكسيد

الكربون ، الغشاء العاقل يأخذ ثاني أكسيد الكربون من دم الجنين يضعه في دم الأم ، جزء من زفير الأم زفير جنينها ، صنع من ؟ قدرة من ؟ حكمة من ؟ علم من ؟ هذا الإله العظيم يعصى ؟ هذا الإله العظيم ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيـع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المحب لمن يحب يطيــع

* * *

الغشاء العاقل يعلم معلومات لا يعلمها معظم أطباء النساء :

يأخذ الغشاء العاقل من دم الأم مناعتها ، جميع اللقاحات التي تلقحت بها في صغرها حتى الولادة ، هذا الغشاء العاقل يعد حارساً أميناً ، لو أن الأم تسممت بمادة غذائية فاسدة السم لا ينتقل إلى الجنين ، من رعا هذا الجنين في بطن أمه ؟ يد من ؟ يد الله عز وجل:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

هذا الغشاء العاقل يعلم معلومات لا يعلمها معظم أطباء النساء ، يعلم هذا الغشاء كم يحتاج الجنين من الغذاء ، من مواد بروتينية إلى مواد دهنية إلى سكريات ، يأخذ الغشاء العاقل من دم الأم مجموعة كبيرة من الأغذية ، من مواد بروتينية ، إلى مواد دهنية ، إلى سكريات ، إلى معادن ، إلى أشباه معادن بالآلاف ، يأخذ بالقدر المناسب وهذا القدر يتبدل كل ساعة كلما نما الجنين ، هذا شيء يعجز عنه أطباء الأرض ، هذا الغشاء العاقل حينما ينقل الغذاء من مواد بروتينية إلى مواد دهنية إلى سكريات يتم الاستقلاب ، السكر يحترق يساوي طاقة ، أما الآن البروتين يستقلب يصبح لحماً ، يصبح أنسجة ، الفضلات ، حمض البول ، الغشاء العاقل يأخذ حمض البول من دم الجنين يضعه في دم الأم ، فجزء من بول المرأة الحامل من بول جنينها ، وقد يحتاج الجنين إلى مادة غذائية ليست متوافرة في غذاء أمه، تشتهي الأم أكلة يحتاجها جنينها .

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية : 88)

أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان كبيرتان وظيفة إرشادية ووظيفة نفعية:

لذلك :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (53))

(سورة فصلت)

هذا الكون بسماواته وأرضه ، بمجراته ، بمذنباته ، بالأرض ، بالجبال ، بالسهول، بالوديان ، بالبحار، بالبحيرات ، بالأسماك ، بالأطيار ، بالنباتات مظهر لأسماء الله الحسنى ، وأحد أكبر الكتب التي يقرأها كل الناس فلذلك الكون مسخر تسخير تعرف وتسخير تكريم ، الدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى الهلال قال :

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن رافع بن خديج]

ننتفع به في التقويم ويرشدنا إلى ربنا ، لذلك الآن أي شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان كبيرتان ، الوظيفة الأولى إرشادية والوظيفة الثانية نفعية ، العالم الغربي استفاد من الوظيفة الثانية إلى أقصى الحدود ، أما المسلمون ينبغي أن يضيفوا إلى استفادتهم الإرشادية من آيات الكون أن يضيفوا إلى هذه الاستفادة الاسْتفادة النفعية .

أيها الأخوة الكرام ، الآن تأتي الآية الدقيقة :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

يعني الإنسان إذا آمن بالله وشكر حقق الهدف من وجوده عندئذ تتوقف المعالجة ، لأنه الله حينما سخر لكم الكون تسخير تعريف رد فعل التعريف أن تؤمن ، وحينما سخر لنا الله الكون تسخير تكريم رد فعل التكريم أن تشكر ، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك .

ثمانون سنة عبادة جوفاء يفضلها التفكر في خلق السماوات والأرض :

أيها الأخوة الكرام ، هذا المقوم الأول الكون ، الكون كتاب مفتوح ، قرآن صامت ، والتفكر أحد أكبر العبادات في الإسلام ، والتفكر جاء بفعل المضارع :

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

و هناك إشارة في سورة القدر :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4)سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(5))

(سورة القدر)

ثمانون سنة عبادة جوفاء يفضلها التفكر في خلق السماوات والأرض حتى تعرف الله حق المعرفة .

قال ابن القيم : من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه ، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه .

2- العقل :

أيها الأخوة الكرام ، ننتقل إلى المقوم الثاني وهو العقل ، العقل مناط التكليف ، العقل أداة معرفة الله ، الله عز وجل يقول :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

هذا العقل له مبادئ السببية والغائية وعدم التناقض ، أي أن الإنسان من خلال هذا العقل لا يفهم شيئاً من دون سبب ، ولا يفهم شيئاً من دون غاية ، ولا يفهم شيئاً متناقضاً مع ذاته ، فمبدأ السببية والغائية وعدم التناقض ، مبادئ العقل الثلاثة ، وأروع ما في الأمر أنها متوافقة توافقاً تاماً مع قوانين الكون ، والعقل لا يقبل شيء بلا سبب فالله جعل لكل شيء سبباً:

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84)فَأَتْبَعَ سَبَباً (85))

(سورة الكهف)

البطولة أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

لذلك أخطر شيء في حياة المسلمين أنهم تركوا الأخذ بالأسباب وتواكلوا على رب الأرباب ، أما الموقف السليم الذي يحتاجه المسلمون اليوم ، دققوا ، أن يأخذوا بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكلوا على الله وكأنها ليست بشيء ، سهل جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها وأن تؤلهها وتنسى الله وقعت في الشرك ، وسهل جداً أن لا تأخذ بها كما فعل المسلمون ، لكن البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكلوا على الله وكأنها ليست بشيء ، هذا ما يحتاجه المسلمون اليوم :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

أن تقول ما بيدنا شيء انتهينا ، لا ما انتهينا :

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أنت ضعيف هذا سبب قوتك ، وأنت قوي هذا سبب ضعفك ، والأحداث تؤكد هذه الحقيقة :

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

وقال :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة القصص)

لا يمكن للعقل أن يكون حكماً على النقل :

دققوا :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

لكن أيها الأخوة الكرام ، لا يمكن للعقل أن يكون حكماً على النقل ، النقل وحي الله ، النقل حق مطلق ، أما العقل مرتبط بالواقع ، الآن نحن إذا أيقظنا إنسان من قبره مات قبل خمسين عاماً وأتيناه بقرص مدمج ، وقلنا له : في هذا القرص خمسة آلاف كتاب ، هل يصدق ؟ لا يصدق ، عاش في حقبة ما كان فيها أقراص مدمجة ، كان فيها كتب ، فالعقل مرتبط بالواقع ، لذلك العقل له مهمتان مهمة قبل النقل ومهمة بعد النقل ، المهمة قبل النقل أن يتأكد من صحة النقل ، وبعد النقل أن يفهم النقل ، دون أن يكون العقل حكماً على النقل ، هذا لا يقبل في عقيدة المسلمين ، لأن النقل هو وحي السماء .

بالمناسبة إن صح أن هناك دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح، قلت الصحيح لأن هناك نقلاً غير صحيح ، وخط العقل الصريح في عقل تبريري ، وخط الفطرة السليمة في فطرة منطمسة ، وخط الواقع الموضوعي في واقع مزور ، الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي .

أيها الأخوة الكرام ، لذلك قالوا : ما كل ذكي بعاقل ، قد يحمل إنسان أعلى شهادة باختصاص نادر ، فهو ذكي جداً ، لكن إن لم يعرف الله فهو ليس بعاقل ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم مجنوناً فسألهم سؤال العارف :

((من هذا ؟ قالوا : هذا مجنون ، قال : لا هذا مبتلى ، المجنون من عصى الله))

[ورد في الأثر]

ما كل ذكي بعاقل ، قد تحمل أعلى شهادة باختصاص نادر ، فإذا ما عرف الله عز وجل ليس بعاقل .
العقل إدراك الكليات والذكاء إدراك التفاصيل الجزئية .

ارتباط العقل بالواقع وارتباط الوحي بعلم الله المطلق :

أيها الأخوة الكرام ، الإنسان يشبه مركبة ، الشهوة هي المحرك ، والعقل هو المقود ، والمنهج الشرعي هو الطريق ، مهمة العقل أن يبقي هذه المركبة على الطريق ، في شهوات نحن نندفع من خلالها إلى الطعام والشراب حفاظاً على وجودنا ، إلى الزواج حفاظاً على النوع ، إلى تأكيد الذات حفاظاً على الذكر ، هذا الاندفاع بدافع الشهوات يحتاج إلى عقل يضبطه ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

أيها الأخوة الكرام ، العقل مرتبط بالواقع ، والوحي مرتبط بعلم الله المطلق ، الآن العقل مقياس علمي:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

3- الفطرة :

هناك مقياس نفسي هي الفطرة ، دققوا :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

إياكم أن تفهموا هذه الآية على غير ما أراد الله ، ألهمها فجورها وتقواها أنه فطرها فطرة عالية جداً ، بحيث لو أنها أخطأت لكشفت خطأها ذاتياً ، ألهمها ذاتياً . لذلك في فندق بألمانيا كتب على السرير : " إذا لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فراشنا إنها وثيرة ولكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة " . الإنسان ينبغي أن يطمئن لطاعته لله عز وجل .

آيات تؤكد الفطرة :

أيها الأخوة الكرام ، الآية الأصل في هذا :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه)

(سورة الروم الآية : 30)

أي أن تقيم وجهك للدين ، أن تنطلق في تطبيق أوامره ، أن تؤدي العبادات ، هذا العمل يتوافق مع فطرتك ، لذلك ما من أمر أمرنا الله عز وجل به إلا والنفس البشرية ترتاح له ، وما من نهي نهانا عنه إلا والنفس البشرية تتألم من تركه ، فلذلك مرض الكآبة مرض منتشر في العالم ، الشعور بالذنب مرض منتشر ، فالإنسان إذا عصى الله عن وعي أو عن غير وعي فطرته تلح عليه بالتأنيب ، لو

وسعنا الفكرة ، الهرة إن أطعمتها قطعة لحم تأكلها أمامك أما إن خطفتها تأكلها بعيداً عنك ، معنى ذلك أنها أدركت أن عملها غير صحيح ، والإنسان ما في إنسان يخطئ بالأرض إلا ويعلم أنه مخطئ ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس .

أيها الأخوة الكرام ، آية أخرى تؤكد الفطرة :

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

هذا من نعم الله علينا ، أنه أعطانا دفعاً إذا اتخذنا قراراً سليماً بالتوبة إلى الله وطاعته والإقبال عليه نشعر براحة ما بعدها راحة ، لذلك قال بعض الملوك وهو إبراهيم بن الأدهم ، قال : " لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف " . الإنسان حينما يتعرف على الله ترتاح نفسه .

توافق الفطرة مع المنهج توافقاً تاماً وكاملاً :

أيها الأخوة الكرام ، أهم شيء تتوافق الفطرة مع المنهج توافقاً تاماً وكاملاً ، الآن لمَ سمي المعروف معروفاً ؟ ملمح دقيق جداً ، لأن النفوس البشرية بفطرتها تعرفه ابتداءً ، الله سماه معروف ، أي معروف عند الخلق ، إنسان بر أمه وأباه هذا العمل مقبول ورائع عند البشر جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم ، إنسان عاون أخاه الضعيف معروف ، معروف عند كل البشر ، والمنكر منكر عند كل البشر، بل قال العلماء : "إن المعروف تعرفه الفطر السليمة ابتداءً وإن المنكر تنكره الفطر السليمة ابتداءً ".

أيها الأخوة الكرام ، يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ، قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً ؟))

[ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة بسند فيه ضعف]

البيت من الشعر الذي دخل صاحبه السجن في عهد سيدنا عمر ، أهجى بيت قالته العرب ، هذا شعار كل إنسان الآن :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

* * *

أيها الأخوة الكرام ، الآن دققوا حينما قال الله عز وجل :

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

آية كريمة ، الله عز وجل بهذه البعثة المحمدية التي شرفنا الله بها ، معنى كنتم أي أصبحتم خير أمة أخرجت للناس .

لا نستحق هذا الوصف الإلهي أننا الأمة الخيرة إلا إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر:

ما علة هذه الخيرية ؟ دققوا :

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (110))

(سورة آل عمران)

إن لم تأمر الأمة الإسلامية بالمعروف ولم تنهَ عن المنكر دققوا فقدت خيريتها وأصبحت أمة كأي أمة خلقها الله ، والدليل :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

إذا قال المسلمون نحن أمة محمد ، نحن أمة الوحيين الكتاب والسنة ، الرد جاهز قل فلما يعذبكم بذنوبكم ، هذه حقيقة مرة وهي عندي أفضل ألف مَرّة من الوهم المريح .

أيها الأخوة الكرام ، النقطة الدقيقة جداً أننا لا نستحق هذا الوصف الإلهي أننا الأمة الخيرة إلا إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، فإن لم نفعل فنحن كأية أمة خلقها الله والدليل :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (33))

(سورة الأنفال)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمون ما دام منهج النبي مطبق فيهم، أيها الأخوة ، من هنا اضطر العلماء أن يقسموا أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمتين ، أمة الاستجابة التي استجابت لله وللرسول حينما دعيت إلى هذا الدين العظيم ، وهذه المعنية بـ (كنتم خير أمة)، والأمة الثانية أمة التبليغ هذه كأي أمة خلقها الله عز وجل حينما هان أمر الله عليهم هانوا على الله .

4ـ الشهوة :

أيها الأخوة الكرام ، الآن ننتقل إلى المقوم الرابع وهو الشهوة ، الشهوة قوة محركة ، الإنسان كائن متحرك ، ما الذي يحركه ؟ بحثه عن الطعام والشراب حفاظاً على وجوده الشخصي ، بحثه عن زوجة والأنثى تتمنى زوجاً يحميها ويكرمها ، الله عز وجل أودع فينا حب الطعام والشراب حفاظاً على وجودنا ، وأودع في الذكر والأنثى ميلاً للطرف الآخر حفاظاً على النوع ليبقى النوع مستمراً ، وأودع

فينا ما يسمى بتأكيد الذات حفاظاً على الذكر ، الإنسان أمام حاجات كبرى حاجة إلى الطعام والشراب ، وحاجة إلى الطرف الآخر ، وحاجة إلى أن يكون شيئاً مهماً ، وهذه الحاجات الثلاث يمكن أن تلبى في منهج الله عز وجل، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل قناة نظيفة تسري خلالها ، بالإسلام لا يوجد حرمان ، الشهوة حيادية ، أنا أسكن في دمشق إلى جوار عالم كبير من علماء القرآن الكريم بلغت سنه السادسة والتسعين ، قال لي : عندي ثمانية وثلاثين حفيداً ، أحد عشر منهم من حفاظ القرآن الكريم ، وثلاثة عشر منهم أطباء ، قلت في نفسي : هذا الإنسان تزوج امرأة أنجب أولاد ، والأولاد جلبوا له الكنائن ، والبنات جلبوا له الأصهار ، الأولاد والبنات والأصهار والكنائن أنجبوا ثمانية وثلاثين حفيداً ، هذا الكم الكبير وهم نخبة ، ما سبب هذا الجمع الغفير ؟ يعني بالتعبير الذي ينبغي أن يقال أساسه علاقة جنسية ، وفي أي بيت دعارة هناك علاقة جنسية ، الشهوة حيادية ، سلم نرقى بها ، أو دركات نهوي بها ، فأنت بالشهوات ترقى مرتين مرة صابراً ومرة شاكراً ، جاءك مبلغ من المال فيه شبهة ، قلت : معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين ترقى إلى الله صابراً ، عملت عملاً مشروعاً كسبت منه مالاً وفيراً استمتعت به أنت وأهلك ترقى إلى الله شاكراً ، ولولا الشهوات ما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات .

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها :

أيها الأخوة ، في الإسلام لا يوجد حرمان ، الشهوة يمكن أن تتحرك مئة وثمانين درجة ، الله سمح لك بمئة درجة ، مئة وعشرين ، ثلاثين ، تسعين ، كل شهوة فيها مجال مسموح فيه بالشرع ، لذلك قال تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (86))

(سورة هود)

ما تبقى لك من الشهوات التي أباحها الله لك هو الخير ، لذلك مرة ثانية ، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل قناة نظيفة تسري خلالها ، في الإسلام لا يوجد حرمان لكن هناك نظام ، كتوضيح لهذه الفكرة ، الشهوة صفيحة بنزين ، توضع في المركبة في المستودعات المحكَمة ، وسال البنزين في الأنابيب المحكَمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولَّدَ حركة نافعة تقلك أنت وأهلك إلى مكان جميل ، وهذه الصفيحة نفسها صبها على المركبة أعطت شرارة أحرقت المركبة ومَن

فيها ، المادة هي هِي ، يجب أن نقنع أنه لولا الشهوات ما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات ، وما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل قناة نظيفة تسري خلالها .

أيها الأخوة الكرام ، بقي شيء الأوامر والنواهي ضمان لسلامتنا ، إنسان يمشي في الطريق وجد لوحة؛ ممنوع التجاوز حقل ألغام ، هل يشعر هذا الإنسان بحقد على واضع هذه اللوحة ؟ وهي ليست حداً لحريتك لكنها ضمان لسلامتك ، فحينما تفهم هذا الدين هذا الفهم أن الأوامر والنواهي ليست حداً لحريتنا بل هي ضمان لسلامتنا تكون فقيهاً .

أيها الأخوة الكرام ، شيء آخر العلاقة بين الأمر والنهي علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، والعلاقة بين النهي والنتيجة علاقة علمية علاقة سبب بنتيجة ، فالأمر الإلهي تجد في داخله نتائجه ، مثلاً إنسان يركب شاحنة معه عشرة طن ، وصل لجسر أقصى حمولة خمسة طن ، بغبائه قال : هناك شرطي ؟ ليس الموضوع هنا شرطي ، موضوع هذا الجسر ينهار بك ، مخالفة هذا الأمر نتائجه فيه ، أنت حينما تفهم أوامر الله أن بذور النتائج فيها ، هذا فهم علمي للدين ، لذلك الله عز وجل جعل أحكام الدين ضماناً لسلامتنا وليست حداً لحريتنا ، يعني سيارة نركبها جميعاً لماذا صنعت ؟ صنعت لعلة واحدة أن تمشي ، لماذا فيها مكبح ؟ المكبح أيديولوجياً يتناقض مع علة صنعها يوقفها ، المكبح أكبر ضمان لسلامتها ، فكما أن السيارة علة صنعها السير ، والمكبح يتناقض مع علة صنعها ، إذاً الذي أمرنا الله به لمصلحتنا والذي نهانا عنه كالمكبح ضمان لسلامتنا .

5- حرية الاختيار :

المقوم قبل الأخير الاختيار ، أنت مخير :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف)

وقال :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

الآية الدقيقة :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

هو موليها ، الإنسان ، أما الآية الأصل في الموضوع :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

الإنسان مسير فيما لم يكلف به ومخير فيما كُلف به :

أيها الأخوة الكرام ، الإنسان مخير وفي اللحظة التي تتوهم أنك مسير ، أنت مسير فيما لم تكلف به ، مسير في كونك ذكراً أم أنثى ما سألك أحد ، مسير في أمك وأبيك ، مسير بمكان ولادتك ، مسير في زمن ولادتك ، أما فيما كلفك الله العبادات الصدق الأمانة ، أنت مخير فيما كلفت ، لذلك سيدنا علي سئل رضي الله عنه : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ قال : ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً ، إذاً لبطل الوعد والوعيد ولانتفى الثواب والعقاب ، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً .

أنت مخير وفي اللحظة التي تتوهم أنك مسير فيما كلفت ما الذي ينشأ ؟ لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة .

أيها الأخوة الكرام ، سيدنا عمر بن الخطاب جاؤوا إليه بشارب خمر ، قال : أقيموا عليه الحد ، قال : والله يا أمير المؤمنين قدر عليّ ذلك ، كما يقول الجهلة ، قال : أقيموا عليه الحد مرتين مرة لأنه شرب الخمر ، ومرة لأنه افترى على الله ، قال : ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار .

أنت مخير في اللحظة التي تتوهم فيها أنك مسير ، تلغى الجنة والنار ، يلغى الثواب والعقاب ، تلغى المسؤولية ، تلغى حمل الأمانة ، يلغى التكليف ، تصبح الحياة تمثيلية سمجة ، لذلك اعتقد أنك مخير وأن الله سيحاسبك ، بالعكس لو بنينا جدارين على عرض كتف إنسان بحيث أن الجدار الأيمن يلمس كتفه الأيمن والأيسر يلمس كتفه الأيسر ، وقلنا له : خذ اليمين ، أي يمين ؟ يعني لمجرد الأمر والنهي في القرآن الكريم أنت مخير .

لذلك أيها الأخوة الكرام ، الله عز وجل يقول :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

هذه عقيدة من ؟ المشركين :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

6- المنهج الشرعي :

بقي مقوم واحد ، نحن عندنا مقياس العقل وعندنا مقياس الفطرة ، لكن لو أن العقل اختل ، العقل قد يختل :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18)فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)ثُمَّ نَظَرَ (21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24))

(سورة المدثر)

بعقله ، إذا ضل العقل أو انطمست الفطرة أعطانا ميزان ثابت هو الشرع ، الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، كأستاذ رياضيات أعطاك مسألة قال لك : هذا هو الجواب ، فإذا حللت وفق هذا الجواب فأنت مصيب وإلا فأنت مخطئ ، فإذا هداك عقلك لما يوافق الشرع نعما هذا التفكير ، أما إذا انتهيت بعقلك إلى شيء يخالف الشرع فهذا التفكير غير صحيح ، لذلك الله عز وجل جعل مقياس ثابت وهو الكتاب والسنة ، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً كتاب وسنة رسوله .

آخر شيء يقول بعض العلماء : الشريعة رحمةٌ كلها ، الشريعة عدلٌ كلها ، مصالح كلها ، وكل أمرٍ خرج من العدل إلى نقيضه ، ومن المصلحة إلى ضدِّها ، ومن الرحمة إلى خلافها ، فليس من الشريعة ولو أُدْخِل عليها بألف تكليف وتكليف .

أيها الأخوة الكرام ، مقومات التكليف الكون والعقل والفطرة والشهوة والحرية والمنهج الشرعي الذي أكرمنا الله به ، وأرجو الله عز وجل أن أكون قد قدمت لكم شيئاً ، وأسأل الله التوفيق لكم ولجميع المسلمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ولا أنسى ثانية أن أشكر القائمين على هذه الجائزة ، وأسأل الله أن تستمر وأن يزداد نموها فلعل الله سبحانه وتعالى ينفع بها شباب المسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة دبي- ندوات مختلفة - الدرس (3-4) : ندوة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الثانيةعشر / طرق الجنة سالكة وتبدأ من بيوت المسلمين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-09-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

ينبغي أن نحقق سلامتنا بطاعة الله عز وجل :

أيتها الأخوات الفضليات ، بادئ ذي بدء على سطح الأرض هناك ستة آلاف مليون إنسان ، أنا متأكد أنه ما منهم واحد إلا يتمنى سلامته وسعادته ، بل إن كل إنسان فطر على حب وجوده وعلى حب سلامة وجوده وعلى حب كمال وجوده وعلى حب استمرار وجوده ، الآن سلامة وجودنا جميعاً بتطبيق تعليمات الصانع ، صانعنا هو الله :

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل الآية : 88)

انطلاقاً من محبتنا لذواتنا ، انطلاقنا من حرصنا على سلامتنا ، انطلاقاً من حرصنا على سعادتنا ينبغي أن نحقق سلامتنا بطاعة الله عز وجل :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية : 71)

أيتها الأخوات الفضليات ، أوامر الله عز وجل أوامر موضوعية بمعنى أن بين الأمر ونتيجته علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، وبين النهي ونتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، فالأخت الفاضلة حريصة على أن تكون إنسانة سعيدة في دنياها ، سعادتها لا في تقليد الغرب بل في تطبيق منهج الله عز وجل ، لذلك التقيت مرة مع عالم كبير في دمشق من علماء القرآن الكريم ، وصل إلى السادسة والتسعين وهو جار لي في سكني ، قال لي : عندي ثمانية وثلاثون حفيداً ، أربعة عشر منهم أطباء ، وأحد عشر منهم حفاظ لكتاب الله ، دققوا رجل تزوج امرأة أنجب أولاداً ، والأولاد جلبوا له الكنائن ، والبنات جلبوا له الأصهار ، مجموع الأولاد والبنات والكنائن والأصهار أنجبوا ثمانية وثلاثين حفيداً ، هذا الذي أنتجته هذه العلاقة ، ألم يقل الله عز وجل :

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل)

ليس في الإسلام حرمان أبداً :

خلق الذكر والأنثى وأودع في كل منهما ميل للآخر ، دققوا هذه الشهوة يمكن أن تكون سلماً نرقى بها إلى أعلى عليين ، أو أن تكون دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين ، الشهوة هي هِي ، الشهوة حيادية ، هل تحبون أن أوضح لكم بمثل ، صفيحة بنزين ، توضع في المركبة في المستودعات المحكَمة ، وسال البنزين في الأنابيب المحكَمة ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولّدَ حركة نافعة تقلك إلى أبي ظبي ، تسافر مع زوجتك وأولادك إلى مكان جميل ، ما الذي يجري في السيارة ؟ انفجرت لكن منضبطة بمكان وزمان في الأنابيب والمستودع ، الوقود السائل نفسه لو صببته على هذه المركبة وجاءتها شرارة لأحرقتها ، مادة هي هِي ، كانت قوة دافعة فإذا هي قوة مدمرة ، هكذا الشهوة ، إما أن تكون سلماً نرقى بها إلى أعلى عليين ، أو أن تكون دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين ، لذلك قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

عند علماء الأصول هناك المعنى المخالف ، الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه ، إسلامنا إسلام الفطرة ، إسلام الواقع ، إسلام أن تأخذ من الدنيا ومن الآخرة ، إسلام أن تنتبه إلى حاجات الجسد وحاجات النفس ، لذلك هناك من يتوهم أن في الإسلام حرمان ، أبداً الإسلام دين الحياة ، دين الفطرة ، دين الواقع ، لذلك انطلاقاً من حبنا لذواتنا ، من حبنا لوجودنا ، من حبنا لسلامة وجودنا ، من حبنا لكمال وجودنا ، من حبنا لاستمرار وجودنا علينا أن نطيع الله عز وجل ، لا تجعلي طاعة الله عبئاً عليكِ، طاعة الله ضمان لسلامتكِ ، أنا أمشي في حقل وجدت لوحة كتب عليها : ممنوع التجاوز حقل ألغام ، هل يعد العاقل هذه اللوحة قيداً لحريته أم ضماناً لسلامته ، هل تحقد على من وضعها ؟ في اللحظة التي نعتقد أن أمر الله لصالحنا وأن النهي لصالحنا نكون فقهاء .

أوامر الدين ليست قيوداً بل حدوداً لسلامتنا :

بشكل أو بآخر هذه السيارة التي نركبها جميعاً لماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير بنا ، في السيارة مكبح، والمكبح يتناقض مع علة صنعها ، يوقفها لكن هذا المكبح ضروري جداً لسلامتنا ، لذلك الله عز وجل خلقنا ليسعدنا ، خلقنا ليكرمنا ، خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض ، ولكن الإنسان حينما يغفل عن منهج الله عز وجل ويتوهم أن هذه الدنيا يسعد بها من يفعل ما يشاء بلا قيد ولا شرط يكون جاهلاً ، دققوا :

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة الآية : 5)

الهدى رفعهم ، أعلى قدرهم ، رفع شانهم ، الهدى سلمهم ، الهدى حفظهم ، الهدى نصرهم ، الهدى أيدهم ،

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى)

أما الطرف الآخر :

(أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)

(سورة إبراهيم)

يوجد كآبة ، أو بلاء كبير ، أو سجن ، لذلك الفلاح كل الفلاح ، التوفيق كل التوفيق ، والفوز كل الفوز، والذكاء كل الذكاء ، والعقل كل العقل ، في طاعة الله :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية : 71)

أتمنى على أختنا الكريمة ألا تتوهم أن أوامر الدين فيها قيود ، أبداً فيها حدود لسلامتنا ، حدود لسعادتنا، هذه واحدة ، الشيء الثاني حينما يقول الله عز وجل :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

المن للتبعيض ، الكون ، السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون ، والكون ما سوى الله ،

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

للزوجة حقوق وعليها واجبات تماماً كالرجل :

الآن دققوا :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

كما أن الكون كله من آياته ، وكما أن الليل والنهار من آياته ، كما أن الشمس والقمر من آياته ،

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

فالزوجة إنسان لها مشاعر ، ولها أفكار ، ولها كرامة ، ولها طموحات ، وهي تحب وتكره ، وتؤمن ويضعف إيمانها ، وترقى ولا ترقى ،

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

ولذلك دققوا في هذه الآية :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (228))

(سورة البقرة)

لها ما لك وعليها ما عليك ، لذلك أنا أقول دائماً : أي رجل يتوهم أن له ما ليس لزوجته وعليها ما ليس عليه فهو بعيد عن حقيقة هذا الدين ، هذه حقيقة أولى ، لكن لا بد من توضيح ، الله عز وجل قال :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ (34))

(سورة النساء)

يعني حينما يقول الله عز وجل :

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

تماماً كقائد الطائرة ومعاون القائد ، المعاون طيار ، بإمكانه أن يقود الطائرة ، لكن في الأزمات القرار للطيار ، والطيار المساعد يساعده بذلك .

المودة والرحمة من خلق الله:

جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام قالت : يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال ، فلما كبرت سني ، ونثر بطني ، وتفرق أهلي ، وتبدد مالي ، قال : أنت عليّ كظهر أمي ، ولي منه أولاد ، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام ، الآن دققوا ، إن تركتهم إليه ضاعوا ، أنا أربيهم ، وإن ضممتهم إلي جاعوا ، هو ينفق عليهم .

إذاً في أدوار ، في اختصاصات ، المرأة تربي الأولاد والزوج يكسب الأرزاق ، لذلك أنا أقول : كيف أننا في حياتنا اليومية الزوج في عمله ، والمرأة تطبخ الطعام ، والبنت تنظف البيت ، والابن يأتي بالأغراض ، وعند الظهيرة يجلسون على مائدة مستديرة كل يحب بعضهم بعضاً ، هكذا المرأة لها دور والزوج له دور .

الحقيقة الأولى كما أن خلق السماوات والأرض آية من آيات الله كذلك الذكر والأنثى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

الآن المودة والرحمة من خلق الله ، وأي زواج ليس بين الزوجين مودة ورحمة حالة مرضية ينبغي أن تعالج ، ومن آياته الدالة على عظمته أن خلق لكم من أنفسكم ،

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

هي درجة القيادة فقط .

أيها الأخوة ، الحقيقة الثانية :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

هل تصدقن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : وقد ورد هذا القول في الأدب المفرد للإمام البخاري :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[الأدب المفرد للبخاري]

ليس قصدي أن أبين الحكم في الزواج أو عدم الزواج ، من حق المرأة الزواج بعد موت زوجها ، لكن قصدي أن أبرز فضل تربية الأولاد ، هذه امرأة تريد أن تنازع النبي عليه الصلاة والسلام في دخول الجنة

.

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة المكرمة ؛ دعته بيوتاتها ليبيت عندهم فقال لهم : انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة ، وركز لواء النصر أمام قبرها ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر هي شريكته في النصر . هل من تكريم بعد هذا التكريم .

خصائص الذكر كمال لمهمته وخصائص الأنثى كمال لمهمتها:

أيها الأخوة الكرام ، الإساءات التي تعاني منها المرأة ما تعاني من سوء فهم المسلمين لدينهم العظيم ، لكن حينما قال الله عز وجل :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران : من الآية 36)

درسنا في الجامعة عن الفروق بين الذكور والإناث ، مؤلفه عالم كبير بياجيه فرنسي ، كتاب والله الذي لا إله إلا هو ليس هناك من عنوان يصدق على هذا الكتاب العلمي المطول من هذه الآية الكريمة :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

هنا الاختلاف ليس اختلاف تقييم ، اختلاف وظيفة ، يعني الله عز وجل أعطى المرأة خصائص جسمية ونفسية واجتماعية وفكرية هي كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، وأعطى الرجل خصائص جسمية وفكرية ونفسية واجتماعية هي كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به ، إذاً خصائص الذكر كمال لمهمته وخصائص الأنثى كمال لمهمتها وهذا معنى قوله تعالى :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

ينطلق الفهم الإسلامي الصحيح من أن المرأة مساوية للرجل تماماً ، ولكن طبعاً مساوية له في التشريف ، مشرفة كما هو مشرف ، مكرمة كما هو مكرم ، مسؤولة كما هو مسؤول ، هل تصدقون أن امرأة خطبها النبي عليه الصلاة والسلام ، ما معنى خطبها النبي ؟ يعني سوف تكون بالمصطلح المعاصر السيدة الأولى ، سوف تكون زوجة سيد الأنبياء والمرسلين ، هل تصدقون أنها اعتذرت ، سألها النبي عليه الصلاة والسلام : لِمَ ؟ قالت : لي خمسة أولاد ، أخاف إن قمت بحقك أن أقصر بحقهم ، وإن قمت بحقهم أن أقصر بحقك ، ما هذا التوحيد ، هذه المرأة بلغت درجة من الفهم ؛ لو أنها زوجة رسول الله لا تعفى من المسؤولية إذا قصرت بحق أولادها ، لذلك هناك ما يسمى بعبادة الهوية ، أنت من ؟ أنت غني عبادتك الأولى إنفاق المال ، أنت قوي العبادة الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، والعالم عبادته الأولى تعليم العلم دون أن يخشى في الله لومة لائم ، والمرأة عبادتها الأولى رعاية الزوج والأولاد .

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

تربية الأولاد ورعاية الزوج يجعلان المرأة في المقام الأعلى:

والله الذي لا إله إلا هو هناك عشرات الطرق من بيتك للجنة ، امرأة ربت أولادها رعت زوجها قدمت لهم ما يحتاجونه ، هذه أمام طريق سالك إلى الجنة بدءاً من بيتها، فلذلك المرأة التي عرفت ربها وعرفت سر وجودها وغاية وجودها يجب أن تعلم علم اليقين أن تربية أولادها ورعاية زوجها يجعلها في المقام الأعلى :

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

أيها الأخوة الكرام ، النبي عليه الصلاة والسلام يخاطب الرجال :

((أكرموا النساء ، والله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

هل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام جعل الخيرية المطلقة في البيت حديث صحيح :

((خَيرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[ابن ماجه عن ابن عباس]

أي الإنسان خارج البيت بدافع من مصلحته يتزين ، يتكلم أطيب الكلام ، يبتسم، يترفع عن بعض السفاسف حفاظاً على مكانته ، لكنه في البيت ما في رقابة ولا في سلطة أنت السيد ، فإذا كان كاملاً كان رحيماً ، كان النبي عليه الصلاة والسلام في مهنة أهله ، كان يكنس داره ، ويخسف نعله ، ويعاون السيدة خديجة ، وكان في مهنة السيدة عائشة وكان في مهنة أهله ، فلذلك حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((أكرموا النساء ، والله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

ومرة قال النبي عليه الصلاة والسلام يصف النساء :

((فإنهن المؤنسات الغاليات))

[الحاكم والطبراني عن عقبة بن عامر بسند ضعيف]

ومرة السيدة عائشة سألت سيد الخلق وحبيب الحق ، سألته : كيف حبك لي ؟ قال لها : كعقدة الحبل ، تسأله ، صار في شيفرة بينهما ، تسأله من حين لآخر : كيف العقدة ؟ فيقول : على حالها ، لا تزال عقدةً محكمة ، الإنسان إذا عرف الله يكون زوجاً ناجحاً ، وإذا عرفت ربها تكون أيضاً زوجة ناجحة .

بطولات جاءت بها النساء المسلمات والنساء اللواتي ذكر الله فضلهن في القرآن الكريم :

شيء آخر ، هل تصدقون أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

معنى ذلك أن الله يفرح ويحب أن يحب أحدنا أهله وأن تحب الزوجة زوجها ، هذا حب مشروع ، هذا حب أراده الله عز وجل ، شيء آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام من شدة حبه لبناته كانت إذا دخلت فاطمة عليه وقف لها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول : فاطمة بضعة مني من أكرمها فقد أكرمني ، هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام في علاقته بأهله وبناته ، لكن أريد أيها الأخوة الكرام ، أن تستمتعوا قليلاً إلى بعض البطولات التي جاءت بها النساء المسلمات والنساء اللواتي ذكر الله فضلهن في القرآن الكريم .

امرأة فرعون ، من زوجها ؟ أحد أكبر جبابرة الأرض ، امرأة فرعون لم يستطع زوجها الجبار الذي قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية : 38)

هذا الزوج الجبار قال الله عز وجل يصف امرأة فرعون :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحريم)

المرأة مستقلة في إيمانها عن زوجها :

أي أن المرأة مستقلة في إيمانها عن زوجها ، تقول المرأة : هكذا يريد زوجي برقبته إن شاء الله ، المرأة فيما يتعلق بإيمانها وطاعتها مسؤولة هي أمام ربها ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إذاً الله عز وجل شاءت حكمته أن تكون امرأة صالحة جداً ممن كمل من النساء زوجة لأكبر جبابرة الأرض ، ولم يستطع أن يحملها على أن تكفر :

(قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ)

ما بال بعض النساء يأمرها زوجها بمعصية فتطيعه حفاظاً على سلامتها وعلى بقائها زوجة له ، ولو قالت له : أنا لا أعصي الله وافعل ما تشاء لأن النبي عليه الصلاة والسلام :

((لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عَنْ عَلِيٍّ]

تكون قد لقنته درساً لا ينسى وسوف يخضع ، وقد تكون هدايته على يدها إن شاء الله .

ماشطة ابنة فرعون ، أثناء تمشيط شعر ابنة فرعون وقع المشط من يديها ، فقالت: بسم الله ، قالت لها ابنة فرعون : ألك رب غير أبي ؟ قالت : الله ربك ورب أبيك وربي ، قالت : سأخبر أبي ، قالت : أخبريه ، فلما أخبرته استدعاها مع أولادها الخمسة ، وجاء بقدر فيه زيت مغلي ، وأمسك ولدها الأول وقال لها : ألك رب غيري ؟ قالت : الله ربي وربك ، فألقى ولدها في الزيت المغلي ، والقصة مؤثرة جداً ، حتى طفت عظام ابنها على سطح الزيت ، ألقى الثاني ، ألقى الثالث ، ألقى الرابع بقيت ثابتة ، فلما جاء دور الخامس ، كان طفلاً رضيعاً ، فلما قال لها : ألك رب غيري ؟ سكتت ، وتضعضعت ، لكن الله سبحانه وتعالى فيما ترويه هذه الرواية الصحيحة أنطق ابنها الصغير ، وقال : اثبتي يا أمي أنت على حق ، فقالت : الله ربي وربك ، وألقاه في القدر ثم ألقاها في القدر .

الشاهد ليس هنا ، الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج شمّ رائحة ما شمّ مثلها قط ، فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون .

أيتها الأخوات الفضيلات ، هذه الدنيا تمضي وتبقى البطولات ، تبقى طاعة الله ، تبقى مأثرة طاعة الله، تبقى التقوى التي هي زادنا يوم القيامة .

طرق الجنة سالكة وتبدأ من بيوت المسلمين:

أيها الأخوة الكرام ، امرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام ، وحدثتكم عنها قبل قليل ، وقد جاء فيها قرآن :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة المجادلة الآية : 1)

يروي التاريخ أن سيدنا عمر كان يركب دابته فالتقى بها في الطريق فنزل عن دابته إكراماً لها ، وأصغى لها ، فقال أحدهم : يا أمير المؤمنين أتتنزل عن دابتك وتصغي إليها ؟ قال : ألا أصغي إليها وقد سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات .

هذه المشاهد وتلك القصص تبين أن للمرأة في الإسلام دوراً خطيراً وكبيراً ، فلذلك الذي أتمناه أن تعرف المرأة دورها في الإسلام ، وكيف أن الله عز وجل كلفها أن تطيع الله بما أقامها ، الله أقام الغني غنياً ، فطاعة الغني لله إنفاق المال ، وأقام القوي قوياً ، طاعته الأولى لله إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وأقام العالم عالم طاعته لله الأولى إلقاء العلم ، ولما أقام المرأة امرأة عليها أن تعبد الله فيما أقامها ، أقامها زوجة ، أقامها أماً ، أقامها جدة ، أقامها بنتاً ، أقامها أختاً ، يجب أن نعلم جميعاً أن طرق الجنة سالكة وتبدأ من بيوت المسلمين لكن لا بد من أن نعرف الله .

أنا أضرب لكم مثلاً بسيطاً على أن المرأة حينما تلد المرأة ينزل مع الجنين قرص لحمي اسمه المشيمة، شيء لا يصدق ، من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله في هذا القرص ، هذه المشيمة يجمع فيها الله عز وجل دورة دم الأم مع دورة دم الجنين معاً ، وإذا في أخت كريمة طبيبة ، من بديهيات الطب أننا إذا أعطينا دماً لإنسان من غير زمرته يموت فوراً بانحلال الدم ، يجتمع في هذا القرص دم الجنين مع دم الأم وكل دم زمرة ولا يختلطان ، السبب ، قال : بينهما غشاء سماه علماء الطب الغشاء العاقل ، سمي غشاءً عاقلاً لأنه يقوم بأعمال لا يستطيعها أطباء الأرض مجتمعين ، ماذا يفعل الغشاء العاقل ؟ يأخذ الأوكسجين من دم الأم يطرحه في دم الجنين ، فقام هذا الغشاء في أثناء الحمل بدور جهاز التنفس ، ثم يأخذ هذا الغشاء السكر من دم الأم يضعه في دم الجنين ، قام بدور جهاز الهضم ، ثم يأخذ الأنسولين من دم الأم يضعه في دم الجنين ،قام بدور البنكرياس ، صار في دم الجنين سكر ،

أوكسجين ، أنسولين ، احترق السكر بالأوكسجين عن طريق الأنسولين ، ولّد طاقة ، حرارة الجنين (37)من أين جاءت ؟ من احتراق السكر بالأوكسجين بالأنسولين ، الفضلات ثاني أكسيد الكربون يأخذه الغشاء العاقل من دم الجنين يطرحه في دم الأم ، نَفَس الأم زفيرها جزء منه نَفَس جنينها .

وظيفة الغشاء العاقل :

الآن عوامل مناعة الأم يأخذها الغشاء العاقل يطرحها في دم الجنين ، فالجنين محصن من كل الأمراض التي أصيبت بها أمه ، ما هذه الدقة في الخلق ؟ ثم هذا الغشاء العاقل يعد حارساً أميناً لا ينقل السموم من دم الأم إلى دم الجنين ، لو أن الأم أكلت غذاءً فاسداً وتسمم دمها هذا السم لا يدخل في دم الجنين ، شيء آخر يعلم دقائق ما يحتاجه الجنين من غذاء ، يحتاج إلى شحوم ثلاثية ، بروتينات ، مواد دسمة ، معادن ، أشباه معادن ، كم كبير من المواد الغشاء العاقل يعلم بدقة متناهية ما يحتاجه الجنين ، وينفذ هذا الاحتياج .

الآن المواد الغذائية بدم الجنين استقلبت ، الاستقلاب حالة تحول الغذاء إلى نسج الفضلات هي حمض البول ، يأخذ الغشاء العاقل من دم الجنين حمض البول ويطرحه في دم الأم ، فجزء من بول الأم بول جنينها .

الآن أحياناً تكون الأم فقيرة لا تأكل غذاء كاملاً فيحتاج الجنين نوعاً من الغذاء ، شهوة الأم في أثناء الحمل لبعض الأطعمة تعبير عن حاجة جنينها . صنع من ؟ حكمة من ؟ قدرة من ؟ صنع من ؟

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

(سورة الطور)

أيتها الأخوات الفضليات ، معرفة الله شيء عظيم ، معرفة الله تجعلنا على الصراط المستقيم ، تجعلنا نسلم ونسعد في الدنيا والآخرة ، معرفة الله تعطينا هدفاً كبيراً في الحياة ، إنسان بلا هدف تافه ، مشكلة الإنسان الذي تشبع بالحضارة الغربية إنسان يعيش لذاته، يعيش لشهواته ، يعيش لمصالحه ، لا يعيش لغيره ، كلكم يعلم الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء ملكوا القلوب ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء عاشوا للناس ، الأقوياء عاش الناس لهم ، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي ، فلذلك إذا كنا من أتباع الأنبياء كنا في سعادة وفي سلامة ، الرجل زوج صالح والمرأة زوجة صالحة ، والأولاد نجباء ، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة دبي- ندوات مختلفة - الدرس (4-4) : ندوة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم الحادية عشر / وسائل تماسك الأسرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-12-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان كائن متحرك :

بادئ ذي بدء الإنسان في هذه الدنيا لا تصح حركته إلا إذا عرف سر وجوده ، هذه الحقيقة الأولى ، الإنسان كائن متحرك ، لماذا هو كائن متحرك ؟ لأن الله أودع فيه حاجات ثلاثة كبرى ؛ أودع فيه حاجة إلى الطعام والشراب ، إذاً يتحرك ليكسب المال ، وليأكل ، وأودع فيه حاجة إلى الطرف الآخر ليتزوج، وأودع فيه حاجة لتأكيد الذات حفاظاً على الذكر ، فالطعام والشراب حفاظ على الفرد ، والزواج حفاظ على النوع ، وتأكيد الذات حفاظ على الذكر ، إذاً هو كائن متحرك ولأنه متحرك يصدق أو يكذب ، يحسن أو يسيء ، ويا أيتها الأخوات الفاضلات الكريمات ، البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم ، وتياراتهم ، وألوانهم ، وشرائحهم ، وأطيافهم ، لا يزيدون عند الله على نموذجين ؛ النموذج الأول إنسان عرف الله فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، وإنسان غفل عن الله ، وتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة ، ولن نجد نموذجاً ثالثاً :

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6))

(سورة الليل)

الرد الإلهي :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل الآية : 7)

زواجه موفق ، حياته موفقة ، نفسيته مريحة ، راضٍ عن الله ، يشعر بالأمن ، يشعر بالتفاؤل ، يشعر أنه في جنة ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . والدليل ، قال تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

(سورة الرحمن)

المرأة في الإسلام مكرمة أعظم تكريم :

أيتها الأخوات الفاضلات ، المرأة في الإسلام مكرمة أعظم تكريم ، النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((أكرموا النساء ، فو الله ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم))

[ورد في الأثر]

وفي زيادة بالحديث : وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.

ما هو أعلى شيء في الإسلام ؟ الجهاد في الإسلام ذروة سنام الإسلام ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

((اعلمي أيتها المرأة ، وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

لذلك علة وجودنا على وجه الأرض أن نعبد الله ، الدليل :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

العبادة في أدق تعاريفها : طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية . هذا كلام دقيق ، علة وجودنا أن نعبد الله ، لذلك مرة أخت كريمة اتصلت بي في دمشق تشكو لي مشكلة تعاني منها مع زوجها ، قلت هذه الكلمة وهي والله تمشي في دمي : المرأة المؤمنة الطاهرة إذا عرفت ربها هي أكبر من أكبر مشكلة ، أما إذا ما عرفت ربها هي أصغر من أصغر مشكلة، لذلك مثلاً أيعقل أن يخطب النبي صلى الله عليه وسلم امرأة فتعتذر ؟ لماذا رشحت ؟ لأن تكون السيدة الأولى في المجتمع ، فاعتذرت ، فلما سألها قالت : يا رسول الله لي خمسة أولاد ، أخاف إن قمت بحقك أن أقصر بحقهم ، وأخاف إن قمت بحقهم أن أقصر بحقك . فأكبرها النبي صلى الله عليه وسلم أيما إكبار ، هكذا ربا النبي الصحابيات :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[الأدب المفرد للبخاري]

ربت أولادها .

أعظم مهمة أنيطت بالمرأة تربية الأولاد :

أعظم مهمة أنيطت بالمرأة تربية الأولاد ، شهاداتها أولادها ، إذا دفعت إلى المجتمع أولاد صالحين صادقين أمناء أعفة يخدمون أمتهم فكل أعمالهم في صحيفتها والدليل :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

كل أعمال ذريتهم إلى يوم القيامة في صحيفة الأم التي ربت ولدها ، لذلك من جاءته بنت فأحسن تربيتها فأنا كفيله في الجنة ، يعني أي بيت فيه بنت ربيت تربية عالية فالأم والأب إلى الجنة ، لذلك أنا أقول هناك عبادة عامة :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

العبادة ، فعلة وجودنا العبادة ، العبادة بأوسع معانيها ، قد يتوهم المسلمون أن العبادة كما قلت قبل قليل: طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

يوجد في هذا التعريف جانب معرفي ، أي طلب العلم فريضة على كل مسلم ، معنى مسلم هنا يعني على كل شخص مسلم ، عند علماء الأصول المسلم هنا على كل شخص مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لذلك المرأة المؤمنة الصادقة حينما تطلب العلم تطلبه أداءً لفريضة فرضها الله عليها ، والآن العلم مبذول والحمد لله ، لذلك المرأة إذا علمنا فتاةً ماذا فعلنا ؟ علمنا أسرة ، أما إذا علمنا شاباً علمنا واحداً .

عبادة الهوية :

أيتها الأخوات الفضليات ، العبادة إذاً : طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية . هناك ما يسمى بعبادة الهوية ، أنت من ؟ أنت غني عبادتك الأولى إنفاق المال، غير الصلوات الخمس والصيام والحج والزكاة هذه عبادة شعائرية على جميع المسلمين من دون استثناء ، أما العبادة التعاملية هناك عبادة الهوية أنت من ؟ أنت غني عبادتك الأولى إنفاق المال ، أنت قوي ، صاحب منصب رفيع ، العبادة الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، القوي بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً ، ويقر معروفاً ويزل منكراً ، ويقرب مخلصاً ناصحاً ويبعد فاجراً منافقاً .

أنت غني عبادتك الأولى إنفاق المال ، أنت قوي العبادة الأولى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، سيدنا عمر جاءه ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم مسلماً ، وفي أثناء طواف جبلة حول الكعبة داس بدوي من فزارة طرف ردائه ، فالتفت جبلة نحو البدوي وضربه ضربة هشمت أنفه ، هذا بدوي من عامة الناس

بالتعبير المعاصر من سوقتهم ، من دهمائهم ، فما كان من هذا البدوي إلا أن شكا جبلة إلى عمر ، فاستدعى عمر جبلة إلى مجلسه ، ودار بينهما حوار ، صاغه أحد الأدباء المعاصرين في الشام شعراً ؛ قال عمر لجبلة : أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال جبلة : لست ممن ينكر شيأ ، أنا أدبت الفتى ، أدركت حقي بيدي . فقال عمر : أرض الفتى ، لا بد من إرضائه ، مازال ظفرك عالقاً بدمائه أو يهشمن الآن أنفك ، و تنال ما فعلته كفك . قال : كيف ذلك يا أمير ؟ هو سوقة ، وأنا عرش وتاج ؟ كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً ؟ فقال عمر : نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها ، أقمنا فوقها صرحاً جديداً ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً . فقال جبلة : كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ، أنا مرتد إذا أكرهتني .فقال عمر : عنق المرتد بالسيف تحز ، عالم نبنيه كل صدع فيه يداوى ، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

أنت قوي العبادة الأولى إحقاق الحق ، هذه تمهيد ، لكن أنت غني عبادتك الأولى إنفاق المال ، أنت عالم عبادتك الأولى تعليم العلم :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ (39))

(سورة الأحزاب)

عبادة المرأة الأولى رعاية الزوج والأولاد :

الآن محط الشاهد أنت امرأة عبادتك الأولى رعاية الزوج والأولاد :

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

نظام الإسلام أساسه الأسرة ، والمربية الأولى في الأسرة هي الزوجة ، هذه التي سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، هذه التي رآها عمر وهو يركب دابته فنزل عن دابته وتأدب أمامها ، فلما سأله بعضهم : ما هذا ؟ قال : لقد سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات أفلا أصغي إليها ، قالت : يا رسول الله ! إن زوجي تزوجني وأنا شابة ، ذات أهل ، ومال ، وجمال ، فلما كبرت سني ، ونثر بطني ، وتفرق أهلي ، وذهب مالي ، قال : أنتِ عليّ كظهر أمي ولي منه أولاد ، الآن دققوا : إن تركتهم إليه ضاعوا أنا أربيهم ، وإن ضممتهم إلي جاعوا ، هو يعمل ويكسب رزقاً ليطعمهم ، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل الله عليه :

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة المجادلة)

إذاً المرأة عبادتها الأولى تربية الأولاد ، هذه شهادة كبرى ، وكل ولد شهادة ، وكل ولد دكتوراه ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا بامرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟ قال : هي امرأة مات زوجها ، وترك لها أولاداً فأبت الزواج من أجلها))

[الأدب المفرد للبخاري]

المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية :

إذاً العبادة الأولى رعاية الزوجة والأولاد ، المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف ، وفي التشريف ، وفي المسؤولية ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(35))

(سورة الأحزاب)

وقال :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

(سورة آل عمران الآية : 195)

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل :

أيتها الأخوات الكريمات ، الله عز وجل يقول :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

(سورة الروم)

السماوات والأرض من آياته الدالة على عظمته ، والكون كله سماوات وأرض ، السماوات والأرض مصطلح قرآني نعني به الكون :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

(سورة الروم)

وقال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (37))

(سورة فصلت)

الآن دققن ، ومن آياته الدالة على عظمته كما أن الكون من آياته ، وكما أن الشمس والقمر من آياته ، وكما أن الليل والنهار من آياته :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل ، وأنا أدعو أخواتي الفضليات أن أي بيت فيه بعض التشويش ، فيه بعض المشاحنة ، بعض الإعراض ، هذه حالة مرضية ينبغي أن تعالج :

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر]

المودة تعبير مادي عن الحب :

أنا حينما أكون مستقيمة على أمر الله ، وحينما يكون الزوج مستقيماً على أمر لله فالود مستمر ومتنامي، يعني هناك من يتوهم أن هذا الود بين الزوجين لفترة بسيطة ، أنا أذكر في حالة غير صحيحة أن في الخطبة مكالمة بين خطيبين دامت ثلاث عشرة ساعة ، بعد سنتين ما فيه ينطق بكلمة في البيت ، سكت ، ما الذي حدث ؟ هذه حالة مرضية ، النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

من علامات إيمان المؤمن والمؤمنة أنه يحب زوجته ، وزوجته تحبه :

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

ما المودة وما الرحمة ؟ الحقيقة في القرآن الكريم ما في ترادفات ، الاختلاف في المبنى دليل اختلاف في المعنى ، العلماء قالوا : المودة تعبير مادي عن الحب حينما تكون الزوجة ملأ سمع زوجها وبصره ومحققة لطموحه ، وحينما يكون الزوج ملأ سمع زوجته وبصرها ومحققاً لطموحها ينشأ بينهما الحب يعبر عنه بالابتسامة ، كان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً ، كان يقول :

((أكرموا النساء ، فو الله ما أكرمهن إلا كريم))

[ورد في الأثر]

كانت إذا دخلت عليه فاطمة وقف لها ، حينما جاءته فاطمة ضمها وشمها وقال : ريحانة أشمها وعلى الله رزقها ، النبي صلى الله عليه وسلم علمنا دروس لا تنتهي ، فلذلك المودة هو التعبير المادي ؛

الابتسامة ، الهدية ، الاعتذار ، لكن لا سمح الله ولا قدر ، لا سمح الله ولا قدر ، لا سمح الله ولا قدر ، المرأة أصيبت بمرض والمرض موجود ، ما الذي يحل محل المودة ؟ الرحمة :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

هذا من خلق الله فأنا أسمع في دمشق بمئات عقود القران ، الذي أجرى العقد يقول : على كتاب الله وسنة رسوله ، يا ترى الزوجان هل عرفا كتاب الله وسنة رسوله ؟ في ماليزيا تجربة رائعة جداً حينما ارتفعت نسب الطلاق ، المسؤولون في ماليزيا أنشؤوا مدرسة ، لا يعقد عقد قران بين خطيبين إلا إذا نجحا في هذه المدرسة ، ستة أشهر يتعلمن النساء في المدرسة حقوق الزوج ، واجبات الزوجة ، مسؤولية الزوجة ، الآداب ، تربية الأولاد ، ويتعلم هو حقوق الزوجة ، واجبات الزوج ، مسؤولية الزوج ، العلم أساس .

البيت يجب أن يبنى على العلم:

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، لكن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، لذلك البيت يجب أن يبنى على العلم ، المرأة حينما تعرف واجباتها ، والزوج حينما يعرف واجباته ، هذا الركب سار في بر الأمان ، حقق الهدف ، فلذلك ما في مشكلة إلا سببها الجهل ، والدليل أن الإنسان مفطور على حب وجوده ، وعلى حب كمال وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، وعلى حب استمرار وجوده ، من أين يأتي الشقاء ؟ من الجهل ، فلذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، لكن العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً .

أيتها الأخوات الفاضلات ، أحد أكبر أسباب الشقاق الزوجي ، أنا لا أتكلم من فراغ ، أنا أتكلم من واقع مر يعيشه المسلمون ، في خصومات ، في شحناء ، في بغضاء ، حتى في آية من أروع الآيات قبل أن أتلوها على مسامعكم هذه الآية تنطبق على الزوجين ، وعلى الشريكين ، وعلى الصديقين ، وعلى الأخوين ، وعلى الجارين ، وعلى الزميلين ، وعلى الأسرتين ، وعلى العائلتين ، وعلى القبيلتين ، وعلى العشيرتين ، وعلى الشعبين ، وعلى الأمتين ، وعلى الحضارتين ، في غير ذلك ، الآية :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية : 14)

لذلك :

((مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[رواه أحمد عن ابن عمر]

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

(سورة الروم)

البطولة أن تعبد المرأة ربها فيما أقامها :

الزوجة حينما تتقدم إلى زوجها إلى نصف الطريق ، وهو إذا تقدم إليها إلى نصف الطريق ، كانا مأجورين معاً على انهما توافقا ، ومن الذي يقطف هذه الثمار ؟ الأولاد فلذلك قال تعالى :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (228))

(سورة البقرة)

أرأيتم آية أوضح من هذه الآية ،

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

هي درجة القيادة ، كيف عندنا طيار ومعاونه ، في ربان سفينة ومعاونه ، الطيار ومعاونه بينهما مسافة قليلة جداً ، لكن بالأزمات القرار لواحد ، هذه درجة القيادة ، لذلك أيتها الأخوات المرأة حينما تتعرف إلى ربها ، وتتعرف إلى واجباتها ، تعبد ربها فيما أقامها ، البطولة أن تعبد المرأة ربها فيما أقامها ، أقامها زوجة ، هناك إنسانة تقصر في حق أولادها ، فلذلك تدفع الثمن باهظاً ، الآن أنا أقول لكم كلمة من القلب : لم يبقَ في أيدي المسلمين حقيقة من ورقة رابحة إلا أولادنا ، وأنا أقول : إذا بلغت أعلى منصب في العالم ، وجمعت أكبر ثروة في الأرض ، وتحمل أعلى شهادة في العالم ، ولم يكن الابن كما تتمنى فأنت أشقى الناس ، قال تعالى :

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(74))

(سورة الفرقان)

أنا أتمنى صلاح البيوت ، القاضي شريح ، هذا قاضي لقيه صديقة الفضيل ، فقال له : يا شريح كيف حالك في بيتك ؟ قال : والله منذ عشرين عاماً لم أجد من يعكر صفائي .

والله أيتها الأخوات أنا أحد أصدقائي توفيت والدته عمرها ثمانون عاماً ، والده تسعون عاماً ، حضرت التعزية ، بكى الأب بكاء غير طبيعي ، هل ماتت بالسابعة عشر ؟ بالثمانين ماتت ، فلما انتهت التعزية حاولت أن أخفف عنه ، قال لي : والله يا بني عشت معها خمساً وخمسين سنة ما نمت يوماً وأنا غاضب منها ، هكذا كانت بيوتات المسلمين مودة ومحبة ورحمة ، فالآية التي تنطبق على كل الحالات :

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية : 14)

قصة القاضي شريح مع زوجته :

لذلك قال : والله منذ عشرين عاماً لم أجد من يعكر صفائي . قال : وكيف ذلك يا شريح ؟ قال : خطبت امرأة من أسرة صالحة ، فلما كان يوم الزفاف وجدت صلاحاً وكمالاً ، يقصد صلاحاً في دينها ، وكمالاً في خَلقها ، ما في أروع من امرأة فقيهة ، ما في أروع من امرأة تعرف ربها ، وتعرف واجبها تجاه ربها ، وواجبها تجاه زوجها وأولادها ، في مرة زوج نصح زوجته ، قال لها : إن في خلقي سوءً، قالت له : إن أسوأ خلقاً منك من حاجك لسوء الخلق .

قال : والله منذ عشرين عاماً لم أجد من يعكر صفائي . قال : وكيف ذلك يا شريح ؟ قال : خطبت امرأة من أسرة صالحة ، فلما كان يوم الزفاف وجدت صلاحاً وكمالاً ، فصليت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة ، فلما سلّمت من صلاتي وجدت زوجتي تصلي بصلاتي ، وتسلم بسلامي ، وتشكر شكري ، فلما خلا البيت من الأهل والأحباب دنوت منها ، فقالت لي : على رسلك يا أبا أمية انتظر ، فقامت فخطبت ، قالت : أما بعد ، يا أبا أمية إني امرأة غريبة لا أعرف ما تحب ولا ما تكره ، فقل ما تحب حتى آتيه ، وما تكره حتى أجتنبه ، ويا أبا أمية لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك ، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي ، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فاتق الله فيّ وامتثل قوله تعالى :

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة الآية : 229)

ألقت أمامه خطبة وقعدت ، هو ليس ينوي أن يخطب ، قال : فألجأتني إلى أن أخطب ، وقفت ، وقال : أما بعد ، فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً ، وإن تدعيه يكن حجة عليك ، أحب كذا وكذا وأكره كذا وكذا ، ما وجدت من حسنة فانشريها ، وما وجدت من سيئة فاستريها .

صحة الأولاد النفسية أساس الوفاق بين الأبوين:

يقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

[ورد في الأثر]

المؤمنة ستيرة والفاسقة فضاحة ، المؤمنة تبقي أي خلاف بينها وبين زوجها فقط، أما غير المؤمنة فضاحة ، لذلك لما الله عز وجل أعطى حلولاً للناشزات :

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ)

(سورة النساء الآية : 34)

لماذا في المضاجع ؟ لو هجرها إلى غرفة ثانية الأمر كشف أمام الأولاد ، الهجر في غرفة النوم فقط ، من أجل أن يبقى هذا بين الزوجين فقط ، والخطأ أكبر خطأ أن يصل الخلاف إلى الأولاد ، لأن صحة الأولاد النفسية أساس الوفاق بين الأبوين ، قبل فترة لي أخ من أخواننا في المسجد ، قال لي : أنا أتناقش مع زوجتي ارتفع صوتي ، رفعت صوتها ، فبكى الصبي ما تحمل ، الابن الصغير سعادته بالوفاق بين الزوجين ، أنا أقول لأخواتنا الكرام الإنسان حينما يكون عنده أولاده يضع حظوظه من الزواج تحت قدمه من أجل أولاده ، فلذلك المرأة التي تعتني بأولادها لها عند الله مكانة كبيرة ، إن الملائكة في السماء والحيتان في البحار تصلي على معلم الناس الخير ، والابن أغلى شيء في حياة أمه وأبيه ، أنا أقول دائماً : الآخرون أنت لهم وغيرك لهم ، أما أولادك من لهم غيرك ، أنا أتمنى كما عندنا جهاد والجهاد ذروة سنام الإسلام ، في عندنا دعوة إلى الله ، في عندنا إلقاء كلمات ، عقد مؤتمرات ، والمرأة يمكن أن تصل إلى أعلى درجة في الجنة من بيتها ، من رعاية زوجها ، كلما ازداد هذا الفقه في حياتنا كلما أصبحت الأسر متماسكة ، أسر سعيدة ، بيوت المسلمين ليست سعيدة وليست مستقرة بسبب التقصير في أداء العبادات ، الله عز وجل قال :

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

(سورة طه الآية : 132)

من علا صياحه في البيت جرحت عدالته :

بيت تقام فيه الصلوات ، هذه الصلاة تشيع في البيت المودة والمحبة والسكينة ، في عندنا بالفقه حكم لطيف جداً أنه : من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته ، في عندنا بحث اسمه العدالة والضبط ، الضبط صفة عقلية ، والعدالة صفة نفسية ، فالمؤمن يتمتع بالضبط والعدل ، فمن عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته ، الآن الفقهاء عددوا ثلاثة وثلاثين حالة لا تسقط العدالة لكنها تجرحها ، أحياناً إبريق يكسر يحطم بمطرقة ، أحياناً يُشْعَر ، في عندنا حالة اسمها جرح العدالة ، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته ، وفي موضوعات ثانية قد لا يعني الأخوات الكريمات ولكن نذكرهم ، من أطلق لفرسه العنان جرحت عدالته ، السرعة بالسيارة الزائدة تجرح العدالة ، من تنزه في الطرقات ـ في طرقات فيها تفلت ـ جرحت عدالته ، إذا أكل لقمة من حرام جرحت عدالته ، إذا طفف بتمرة بالميزان جرحت عدالته ، إذا قاد برذوناً أي حيواناً مخيفاً ليخيف الصغار ، من أكل في الطريق

جرحت عدالته ، من مشى حافياً ، إلى آخره ، في عندنا ثلاثة وثلاثين حالة تجرح العدالة ، لكن أنا ذكرت الحالات من أجل حالة واحدة ، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته .

أما بعد ، فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً ، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا وأكره كذا وكذا ، أعطاها قائمتين ، ما وجدت من حسنة فانشريها ، وما وجدت من سيئة فاستريها ، المرأة المؤمنة ستيرة ليست فضاحة . قالت: كيف نزور أهلي وأهلك ؟ في جلسة مفاوضات أول الزواج ، قال : نزورهم غباً مع انقطاع بين الحين والحين لئلا يملونا . وفي الحديث الشريف :

((زر غِبًّا تزدد حبًّا))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

قالت : فمن من الجيران تحبَّ أن أسمح لهنَّ بدخول بيتك ومن تكره ؟ قال : بنو فلان قومٌ صالحون ، وبنو فلان قومٌ غير ذلك ، ما قال لها سيئون ، قال غير ذلك ، قال : ومضى عليَّ عامٌ جئت إلى البيت فإذا أم زوجتي عندنا ، فلمَّا دخلت رحَّبتُ بها أجمل ترحيب قالت لي أمها : يا أبا أمية كيف وجدت زوجتك ؟ قلت : والله هي خير زوجة ، قالت : يا أبا أميَّة ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدلّلة فوق الحدود ، فأدِّب ما شئت أن تؤدِّب ، وهذّب ما شئت أن تهذّب ، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة . ومضى علي عشرون عاماً لم أجد ما يعكر صفائي إلا ليلة واحدة كنت فيها أنا الظالم .

نبي هذه الأمة وأكبر داعية في العالم كان زوجاً ناجحاً :

والله يا أخواتي الكريمات ، أحياناً يقول الشخص : لها عندي عشرون سنة ما نمت يوماً مرتاحاً ، هنا بالعكس عشرين سنة ما انزعج منها يوم ، إذا البيت فيه ود ومحبة ، دائماً كلامي دقيق أقوله الحب يصنع بأيدينا ، في مقولة شيطانية أنه بعد سنتين أو ثلاثة حياة روتينية مملة ، هذا كلام الشياطين ، لأن الشيطان له مهمة واحدة أن يفرق بين الزوجين ، أن يكره الزوج بزوجته وأن يكره الزوجة بزوجها ، فالمؤمنة الصادقة تقدم دلائل محبتها لزوجها وتعبر عن ذلك ، في شخص لا ينطق بكلمة في البيت ولا بكلمة لطيفة ، هذا خطأ كبير .

في موضوع اسمه أسباب الشقاق الزوجي ، أحياناً الحديث في البيت يُحدث مودة يستمع الإنسان لزوجته يعمل مودة ، السيدة عائشة سألت سيد الخلق وحبيب الحق ، سألته : كيف حبك لي ؟ قال لها : كعقدة الحبل ، عقدة لا تفك ، تسأله من حين لآخر كيف العقدة ؟ فيقول على حالها . مع أنه كان نبي هذه الأمة وأكبر داعية في العالم كان زوجاً ناجحاً .

مرة وكان يستمع إلى زوجته ، حدثته عن أبي زرع وأم زرع ، وكانا زوجين مثاليين ، لكنها تأسفت أشد الأسف حينما أعلمته في النهاية أنه طلقها ، فكان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بها ، فقال لها : أنا لك كأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك .

أنا الذي أتمناه على كل أخت كريمة أن تراجع حساباتها مع ربها ، يجب أن تكون المودة بينها وبين زوجها في أعلى مستوى ، تصنع هي ذلك بنفسها ويصنع هو ذلك بنفسه ، بالتفاهم والود والمحبة يعيش الإنسان حياة هانئة ، والعمر قصير ، تجدهم يحاربوا بعضهم شهر شهرين ثلاثة ، هذه ليست حياة ، فلذلك هذه زوجة شريح قالت له : إن أسوأ خلقاً منك من حاجك لسوء الخلق . إنسانة فقيهة .

أيتها الأخوات الكريمات ، أنا أجد العبادة الأولى للمرأة الأولى ، تقول لك : أنا لا أحبس في البيت ، هذا الطيار الذي عنده ستمئة راكب جالس في غرفة صغيرة ، في كبينة القيادة ، محبوس بالكبينة ، أما سلامة الستمئة راكب بيده ، فلما المرأة تشاهد أن بيتها جنة وبيتها مكان تربية أولادها ، لا تقول : أنا حبست في البيت ، بالعكس هي طليقة ، لكن أعلى شهادة تملكها المرأة تربية أولادها ، أسأل الله التوفيق والنجاح لي ولكن .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس